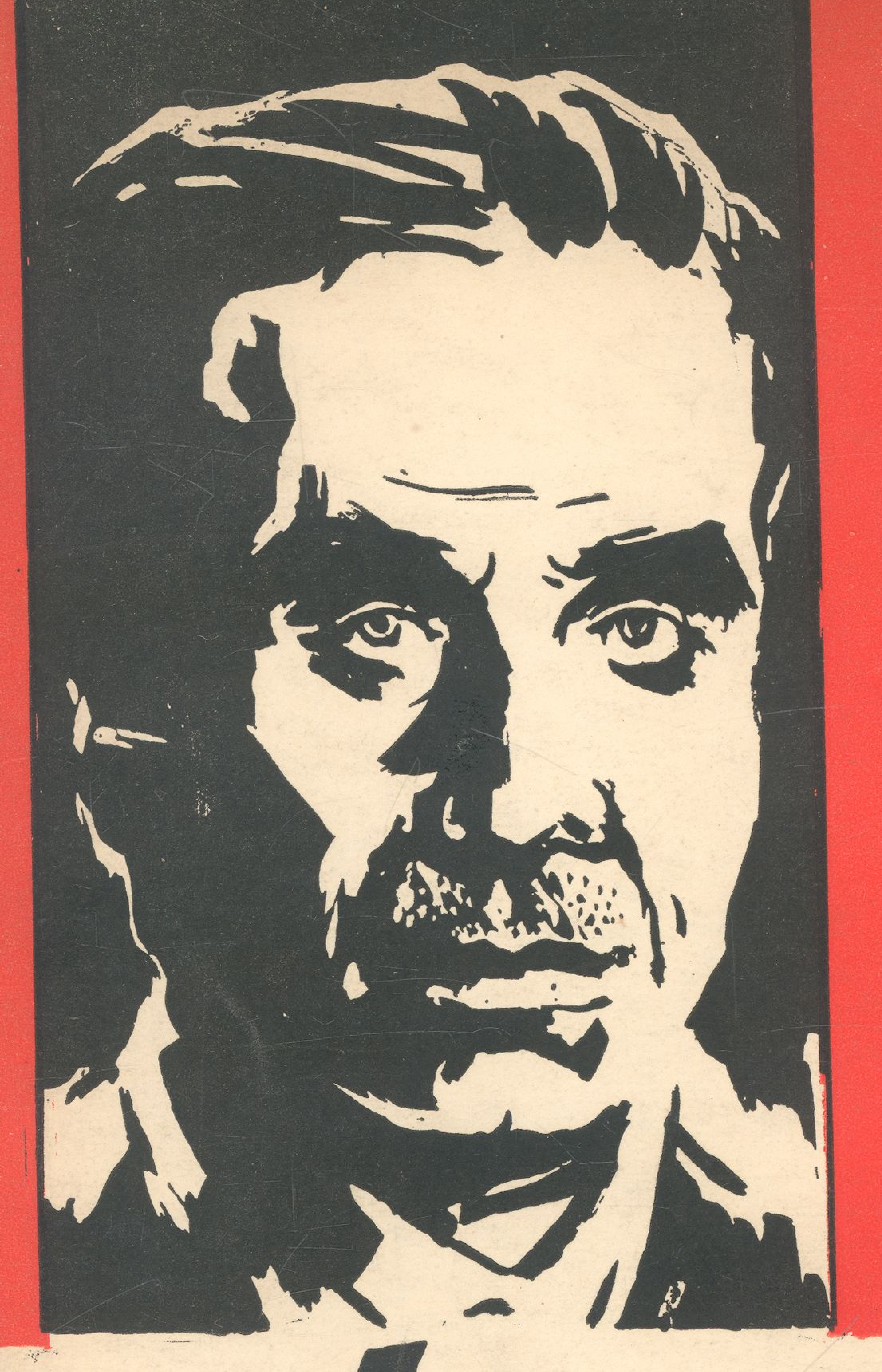
فاروق القاضي



ماذا يريد بورقيبه؟

إهـــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين

جمهورية مصر العربية

إلى الأخ الحبيب وصانع الفلاحة
ورفيق الليالي العاصفة، أبو الهيثمية
تحياتي وتقديري مع ...
فاروق القاضي



ماذا يريد بورقيبة؟

فاروق القاضي

صدر عن دار الفكر
ـ الطبعة الاولى ـ ٥٨،
دار الهنا للطباعة والنشر ٢٧



ان بورقيبة وأمثاله .. ظاهرة استعمارية .. لا يوجدون الا فى ظل الاستعمار ، ولا يعيشون الا بالاستعمار .. انهم والاستعمار ، مثل السمك والماء ، غير أن الماء قد يوجد بلا سمك ، لكن الاستعمار لا يعيش بلا عملاء ..

فأينما حل الاستعمار ، وجدنا العملاء يظهرون على الفور ..

لذلك لانجد ان شعوب اسيا وافريقيا المناضلة من اجل حريتها وسيادتها على اراضيها ، منكوبة بالسيطرة الاجنبية من الخارج ، والرجعية المستغلة فى الداخل التى تلعب دورها لحساب الاستعمار ، على حساب الملايين من ابناء الشعب الذى يقاوم ببطولة لتخليص نفسه من سلاسل العبودية .

وظاهرة الترابط بين الاستعمار والعملاء ، رغم شيوعها فى كل البلدان المستعمرة أو شبه المستعمرة ، تختلف فى ظهورها على مسرح الاحداث ، باختلاف الظروف الخاصة التى تعيشها هذه البلاد ، وباختلاف المراحل التاريخية التى يمر بها كفاحها الوطنى ، وباختلاف أساليب الاستعمار ، وسياسته التكتيكية من أجل السيطرة عليها . ففى مرحلة من المراحل ، وفى ظل ظروف معينة قد يلجأ الاستعمار الى الاستعانة بعملاء مكشوفين ، يعملون لحسابه .. وفى ظروف أخرى تضطره اليها اليقظة الجماهيرية ، أو تواتيه الظروف السعيدة ، فيقدم

للناس عميلا ذا ماضى وطنى ، أو هكذا يبدو . فيكون هذا أوفق له ، واسهل فى خداع الجماهير .. لكن الى حين .

ولقد كان المعلق السياسى الامريكى لمجلة « النيوزويك » ، ارنست ليندلى .. ينعى دائما على نورى السعيد ، أنه « صديق » للغرب ، أى « عميل » ، الا أنه صديق مكشوف ..

كما كان نفس الكاتب ، يدعو حكومته دائما الى الوقوف بصلابة الى جوار الحبيب بورقيبة ، فهو « الصديق » الوحيد ، اى «العميل» ايضا ، الباقى فى البلدان العربية .

والحقيقة أن دور عميل الاستعمار بورقيبة ، هام جدا بالنسبة لاستراتيجية الاستعمار الامريكى فى شمال افريقيا . فهو الرجل الذى شاء التاريخ ان يسند اليه دور القائم على تنفيذ أهداف أمريكا وخططها فى محاربة القومية العربية ، وفى محاولة فرض الاحلاف الاستعمارية على شعوب العرب ، بعد أن قضى على نورى السعيد ، وتقوضت أركان حلف بغداد بفضل كفاح الشعب العربى ، وانتصاراته التى توجت بانتصار الشعب العراقى فى ١٤ يوليو الماضى .. وبعد أن انهار عملاء الاستعمار فى لبنان تحت ضربات الشعب اللبنانى ، وبعد ان أصبح محتلو الاردن فى عداد المنتهين ، وتعد أيامهم بالايام الباقية للحامية البريطانية التى قد أوتى بها عبر اسرائيل .

ولقد شاءت الظروف ، أن أتتبع دور الحبيب بورقيبة ، ونمو هذه المؤامرة الامريكية على القومية العربية ، ابان اقامتى فى فرنسا ، ومراكش وتونس .. حيث اتيحت لى لقاءات عدة مع بورقيبه واحرار العرب فى شمال افريقيا .. واعتقد انه قد آن الاوان للكشف عن هذه المؤامرة ، وعن دور هذا العميل فيها ، حتى نلم بتجربة جديدة من تجارب شعبنا العربى ، نخرج منها بخبرة جديدة ، تساعدنا فى طريقنا الشاق الطويل ، نحو تحرير كافة شعوب العرب ، ووحدتها ، من أجل سلام العالم ، وتقدمه .

الفصل الاول

الاستعمار الأمريكي لأفريقيا

ان مؤامرات السياسة الاستعمارية للولايات المتحدة الامريكية في شمال افريقيا ، هي جانب من خطة كبيرة للسيطرة على افريقيا ، واستغلال كافة مواردها وثرواتها ، بعد أن اصبح الوضع في اسيا والشرق الاوسط لايدعو للاطمئنان ، لنمو حركة التحرر الوطني فيها .. لذلك وجب ان توجه كل الجهود الى القارة الافريقية ، خاصة وان حليفتي الولايات المتحدة الاستعماريتين الكبيرتين قد خرجتا من الحرب العالمية الثانية ، وهما في حالة يرثى لها من الانهيار السياسي والاقتصادي ، وما ينجم عن ذلك من انهيار لسلطانهما الاستعماري .

ولم تكن هذه الخطة وليدة اليوم ، ولا حديثة الوضع ، بل انها تعود الى عام ١٩٤٠ ، عندما بدأت الدوائر الاستعمارية العدوانية في الحكومة الامريكية ، تعمل من وراء ظهر ، الرئيس الطيب «المشلول» فرانكلين روزفلت ، من فوق قمة « تل الكابيتول » ــ مقر الحكومة الامريكية ، وتضع الخطط لمواجهة احتمالات مابعد الحرب ، التي راوا فيها تغيرا حتميا لموازين القوى العالمية ، من نشوء قوى جديدة واضمحلال قوى كانت موجودة .

وكان محور هـذه الخطط اسـتيلاء امريكا على مستعمرات بريطانيا وفرنسا ، والبلدان الاوروبية الاخرى ..

واننا لنجد الدليل على هذا واضحا فى التصريح الذى ادلى به المستر فرجل فوردان ، رئيس ادارة المؤتمر الصناعى القومى للولايات المتحـدة الامريكية ، فى ذلك الوقت ، وهى تلك الهيئة المنظمـة لطرق استثمار رؤوس الاموال الامريكية الكبرى .. ذلك الحدث الذى قال فيه ((**مهما تكن نتيجة الحرب ، فان امريكا قد وضعت** برنامجا لمستقبل استعمارى فى الشئون الدولية ، وكذلك فى جميع مرافق حياتها الخاصة . وحتى اذا خرجت انجلترا بفضل مساعداتنا دون أن تهزم فى هذه الحرب ، فانها ستكون فى حالة من الفقر والشلل بحيث لايبدو من المحتمل انها ستكون قادرة على استعادة مركزها أو الاحتفاظ بسيطرتها على الشئون الدولية التى احتفظت بها امدا طويلا ..

ولو اخذنا احسن الفروض فان انجلترا ، ستكون شريكا صغيرا فى استعمار انجلو سكسونى ، يكون مركز الثقل فيه للموارد الاقتصادية والقوة العسكرية ، والبحرية ، للولايات المتحـدة الامريكية .. ان الزمام ينتقل للولايات المتحدة الامريكية ..

لذلك لم تكد الحرب العالمية الثانية تنتهى حتى كانت الاستراتيجية الامريكية تزحف على القارة الافريقية من الجنوب والغرب والشرق .. والشمال .. واصبحت كلمة ماكورميك التى قالها فى كتـابه « امريكا وسيادة العالم » **التى قال فيها : ((كلما تقلصت قبضـة انجلترا على العالم ، يجب أن يوجد النفوذ الامريكى ، وحيثما تنتهى سيطرة انجلترا يجب ان تبدأ سيطرة امريكا)) .**

أصبحت هـذه الكلمة هى شعار السياسة الاستراتيجية ، للاستعمار الامريكى الجديد ..

وهكذا ، لم يحل عام ١٩٤٧ ، حتى كانت التجارة الامريكية قد تغلغلت فى افريقيا ، وفاقت نسبة ماقبل الحرب بنسبة تقرب من ٥٠٠٪ ففى اتحاد جنوب افريقيا مثلا ، اصبحت تجارة امريكا معها ٤١٢٫٣ مليون دولار عام ١٩٤٧ فى مقابل ٦٩٫١ مليون دولار عام ١٩٣٨ . واستطاع رأس المال الامريكى ، عن طريق « اتحاد الاستثمار الترنسفالى ـ الامريكى » أن يوطد مركزه فى أكثر من ١٠٠ شركة .. وهكذا مع نهاية الحرب بدأ رأس المال الامريكى فى غزو افريقيا والسيطرة على القارة البكر ، التى « أدخرها الله لهم » على حد قولهم .. واصبحت أفريقيا تكون جزءا هاما فى كل المشروعات الامريكية .

هذا ولقد اعلن تقرير لجنة مشروع مارشال ، عن اقتصاديات أوروبا لعام ١٩٤٧ ، أن عاملا اساسيا من عوامل الانهاك الاقتصادى الذى تواجهه دول غرب اوروبا الاستعمارية ، انما ينجم عن فشل النظام القديم لاستغلال المستعمرات .. وانتهى المقررون لمشروع مارشال ، الى ان الطريقة الوحيدة لمعالجة هذا الفشل والافلاس ، انما هى زيادة استغلال البلاد المستعمرة ، وتدعيم وتجديد الطرق والوسائل الاستعمارية القديمة .. وفى نفس الوقت الذى رسم فيه ساسة امريكا ذلك .. اعلنوا ان الوضع فى اسيا والشرق الاوسط لايدعو الى الاطمئنان بسبب نمو حركات التحرر الوطنى فيها .. لذلك وجب أن توجه الجهود الى القارة الافريقية .

وهكذا ارتبط برنامج المعونة الاوروبية ، وبرنامج الاتحاد الاوروبى تحت قيادة أمريكا ، ببرنامج مضاعفة أستغلال المستعمرات .. وبصفة خاصة فى افريقيا ..

ورسم السادة الاستعماريون ، خريطة جديدة للعالم ، اعتبروا افريقيا فيها « الامتداد الجنوبى لغرب اوروبا » .. وعليه اصبحت القارة الافريقية الحصن الاستراتيجى لحلف الاطلنطى .

وهكذا وفى نفس الوقت الذى كان فيه الاستعماريون الاوروبيون فى انجلترا وفرنسا ، بل وفى المانيا الغربية ، يضعون الخطط ، ويعدون المشاريع ، لزيادة استغلالهم للقارة الافريقية ، وزيادة استعبادهم لشعوبها ، بعد ان اخذ نفوذهم يتضاءل فى اسيا والشرق الاوسط ، كان الاستعمار الامريكى يضع خططه ومشاريعه لغزو افريقيا . .

واعتمدت الخطط والمشروعات الامريكية ، على الادارة الاوروبية فى المستعمرات والمحميات الافريقية ، كقنطرة تعبر عليها للوصول الى اغراضها ، ففى كل لجان مشروع مارشال ، ولجان انعاش اوروبا كان ممثلو امريكا هم المدافعين عن برامج تنمية افريقيا ، والمطالبين بسرعة تنفيذها ، بمعونة رؤوس الاموال والمساعدات الامريكية ، واعتبار هذه المشروعات ، جزء لايتجزأ من مشروعات الكتلة الغربية . . وتدفقت البعثات الفنية الامريكية ، على المستعمرات الفرنسية والمستعمرات البريطانية ، ومستعمرات البلدان الخاضعة لمشروع مارشال فى افريقيا . . واخذت تستكشف وتدرس وتبين المجالات التى ستفتح لرؤوس الاموال الامريكية ، واخذت تمهد الارض لها ، وتعد المشروعات لاستغلالها ، وتضع الخطط للاستيلاء الكامل على افريقيا ، وترسم الخريطة الاستراتيجية العسكرية لافريقيا ، لاقامة القواعد العسكرية الامريكية .

وكان السيد فوستر دالاس ، الشهير ، هو اول من ايد مشروع انشاء الكتلة الغربية وربطه بخطط التوسع الامريكى والاستغلال الامريكى للقارة الافريقية ، واعتبر ان مشروع الكتلة الغربية لايمكن ان ينجح ، الا اذا اعتمد اساسيا على تنمية القارة الافريقية ، وان تقوم الولايات المتحدة بتقديم المعونة المالية ، والفنية لتحقيق ذلك . وكان السيد « دالاس » يرى ان نجاح الكتلة الغربية فى تحقيق ذلك الربط سيؤدى الى اغناء اوروبا كلية عن الاعتماد على موارد اوروبا

الشرقية ، وان ايجاد نظام جديد يجمع بين القارتين سيؤدى الى تقوية اتحاد اوروبا الغربية وتدعيمه .

ففى الواقع لم يكن فى استطاعة أمريكا وهى تضع خطط السيطرة على كل المستعمرات القديمة ان تتغاضى عن افريقيا ، هذا المخزن الضخم ، المتلىء بالمواد الاولية .. فافريقيا « قارة المستقبل » كما تسميها الصحافة الأمريكية ، هى مورد غنى للمواد الاولية الصناعية فهى تحتل مركز الصدارة فى سوق العالم الرأسمالى ، فى انتاج «الاورانيوم» ، والماس الصناعى والذهب ، و« الكوبلت » الكولومبيت ومركبات الفوسفور ، و «النيوبيوم » و « التنتالوم » ، و«البريليوم» وهى مورد خصب للمواد الاولية الزراعية ، فهى تنتج ٧٠٪ من الكاكاو ، وزيت النخيل فى العالم ، وأكثر من ٧٥٪ من التيل ، و٢٢٪ من الفول السودانى ، و١٥٪ من البن على سبيل المثال .

وكل المشروعات التوسعية ، لاستغلال موارد افريقيا ، التى اعدتها انجلترا وفرنسا وبلجيكا ، اصبحت كلها مشروعات تابعة للاستراتيجية الامريكية ولمشروعات « وول ستريت » .. للسيد الجديد صاحب الكلمة العليا فى لندن وباريس بعد الحرب ، صاحب مشروع مارشال ، ومنظم الاتحاد الاوروبى ، وقائد الاطلنطى .. الخ

كما اصبحت سيطرة الاحتكار الامريكى على موارد افريقيا ، عملا تعترف به دول الاتحاد الاوروبى ، التى قبلت قانون الامن المتبادل الصادر فى عام ١٩٥١ ، هذا القانون الذى فرض على البلاد التى تتلقى « مساعدة » الولايات المتحدة ان تساعد الصناعة الامريكية على الوصول الى موارد المواد الاولية الضرورية والحصول على نصيب وافر من انتاج المواد الاولية ، والسلع المصنوعة .. وعقد معاهدات صداقة وتجارة وانماء اقتصادى تلائم توظيف رؤوس الاموال الامريكية .

وهكذا وتحت ستار التعاون ، ومساعدة الدول الغربية ، على

تنمية مستعمراتها الافريقية اخذ احتكار الدول الاستعمارية القديمة لافريقيا يتلاشى شيئا فشيئا ، واصبح احتكاريو « وول ستريت » ، يضعون ايديهم على البلدان الافريقية المستعمرة ، والتابعة ، وحديثة الاستقلال ، التى يرضى حكامها الرجعيون ، أو العملاء الذين أسلم اليهم الاستعمار الراحل مقاليد الامور ، بتسليم مقاليدها للاحتكارات الآمريكية ، فتسيطر على جميع مواردها ، وجميع منابع الثروة فيها

فبلغت القروض التى منحتها امريكا منذ نهاية الحرب العالميـة الثانية للبلدان الافريقية ٣٤٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دولار ــ اغلبها عن طريق بنك التصدير والاستيراد . وقدم البنك الدولى للانشاء والتعمير ، والخاضع لاشراف ملوك المـــال الامريكيين للبلدان الافريقيـــة ٢٥٩٫٧٠٠٫٠٠٠ دولار . وزادت رؤوس الاموال الخاصة المستثمرة فى افريقيا ، من ١٥٠ مليون دولار الى ٦٦٤ مليـون دولار ، وانفقت امريكا ٧١٥٠٠٫٠٠٠ دولار كمنح لافريقيا .

وأخذت مجموعات « ديبون » ، و « روكفلر » و « مورجان » ، و « مولون » ، وشركات المعادن الامريكيـــة ، وعلى رأسها « شركة نيومونت » للتعدين ، و « شركة سان جوزيف » فى التسلل الى القارة الفنية .

لكن الامبراطورية الامريكية ، والاخطبوط الاحتكارى ، لرأس المال الاستعمارى ، وهو يشيد بناءه فى افريقيا بواسطة المساعــــدات الاقتصادية والفنية ، انما يضع فى حسابه دائما مقاومة الشعوب التى لاتلبث ان تتكشف الهوة السحيقة التى تردت فيها ، والتى حاولت الرجعية المستبدة من الداخل ان تموهها عليها .. تلك المقاومة التى لاتلبث ان تظهر فى شكل حركات التحرر الوطنى .. فتسعى امريكا جاهدة الى ربط هذه الشعوب ، بواســـطة حكوماتها المتحالفـة ، والضعيفة والخائنة بعجلتها ، وتسير على الاسلوب الذى عبر عنــه « نيلسون روكفلر » وارث الاحتكار الامريكى الكبير «ستاندرد أويل»

فى خطابه الذى ارسله الى ايزنهاور فى ١٦ يناير ١٩٥٦ ، وقال فيه :
((انى لسعيد أن أرى الحكومة ، قد أخذت تهتم اهتماما جديا بالجانب الاقتصادى فى احلافنا العسكرية ـ حتى ولو كان ذلك يحدث تحت تأثير من عوامل خارجيـــة ـ واعترفت بان السياسة الاقتصادية ، لايمكن فصلها عن السياسة العسكرية .

وان اصدق مثال للتطبيق ، للتدليل على ما أقصده ، هـــو التجربة الايرانية التى ـ كما ذكرت ـ كنت مختصا بها مباشرة .. فباستخدام المساعدة الاقتصادية نجحنا فى الحصول على نصيب من البترول الايرانى ، واصبح لنا الان نفوذ طيب فى اقتصاد هذه البلاد ان تقويتنا لمركزنا الاقتصادى فى ايران مكننا من السيطرة على كل سياستها الخارجية ، وبصـــفة خاصة تمكننا من اشراكها فى حلف بغداد . و فى الوقت الحاضر ، لايجرؤ الشاه ، حتى على احداث تغيير فى وزارته دون اخذ رأى سفيرنا ..))

نعم ان الحكومة الامريكية ، وهى تشيد امبراطوريتها الجديدة فى افريقيا ، تنفذ الى هذه القارة عن طريق المساعدات الفنية ومشاريع التنمية الاقتصادية .

لكن النضال من اجل الاستقلال الوطنى ، والتحـــرر من اسر العبودية ، وذل الاستعمار ، اخذ يجتاح شعوب افريقيا .. والمارد الذى ظنته امريكا لم ينضج بعد ، قـــد نما وكبر ، وهب ينفض عن كاهله ، كل غبار السنين ..

وحصلت بلدان افريقية عديدة على استقلالها الوطنى كنتيجة لكفاح شعوبها .. وعلى رأس هذه الشعوب ، مصر (الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحـــدة) ، والسودان ، وغانة ، وتونس ومراكش .. و لازال الشعب الجزائرى البطل ، يخوض غمار حرب ضروس ، استمرت سنين عديدة ، فى مواجهة فرنسا ، ومن ورائها

امريكا وكل دول حلف الاطلنطى . وقامت فى هذه البلدان التى تحررت حكومات وطنية ، وحكومات خائنة ..

ومتى وجدت قوى وطنية ، وقوى خائنة ، فان القوى الوطنية انما تتكاتف ، وتتحد للقضاء على القوى الخائنة ، ليس فقط بين صفوف الشعب الواحد ، بل بين جميع شعوب العالم . ضد كل القوى الاستعمارية المستغلة أيا كان لونها ، واينما كان مجال نشاطها ومنطقة عدوانها ..

وهكذا لم تعد حركات التحرر الوطنى فى افريقيا ، التى انتصرت منها ، والتى فى طريقها الى النصر ، تهدد القوى الاستعمارية القديمة فحسب ، ولكن اصبحت ايضا تهدد القوى الاستعمارية الجديدة ، القادمة باحتكاراتها وقروضها ومساعداتها الزائفة . . « الولايات المتحدة الامريكية » .

لهذا ، ولوعى الاستعمار الامريكى بهذه الحقيقة ، اخذت الولايات المتحدة تعد العدة لمواجهة خطر ثورة شعوب افريقيا ، ووضعت برنامجا يقوم على دعامتين ، تكفلان لها ، كما خيل لها فكرها السقيم كبت جماح الشعوب المنطلقة نحو التحرر والسيادة .. هاتين الدعامتين .. هما ..

الاحلاف والقواعد العسكرية ..

والعملاء .. اى وضع حكومات موالية لامريكا ..

لهذا نشرت أمريكا قواعدها الجوية والبرية والبحرية فى « النواصر » ، و « بن جرير » ، و « سلا » ، و « سيدى سليمان » و « القنيطرة » ، و « الدار البيضاء » ، بمراكش ، وقاعدة « بنزرت » البحرية التابعة لحلف الاطلنطى فى تونس ، وقاعدة و « ىلوس » فى ليبيا ، وقاعدة ليبريا .

وأقامت امريكا المراصد الجوية فى ارتيريا .

واقامت حكومة واشنطن ، الموانىء والقواعد البحرية فى دكار ، ومورودافيا ، وابيجان ، ولاجوس ، ولوندا ، ومدينة الكاب ، ودربان ولونسو ، وماركيز ، وبايار ، ودار السلام ، وممباسا ، وجيبوتى وغيرها .

هذه القواعد ، علاوة على كونها مراكز للهجوم العـــدوانى على الشعوب المحبة للسلام ، وحركات التحرر الوطنى ، والبلدان المتحررة وبلدان المعسكر الاشتراكى الا انها فى نفس الوقت ، وأساسا مراكز تضمن حماية التوسع الاحتكارى ، والاستغلال الاستعمارى ، لعرق وثروات الشعوب ، وضمان فرض الحكومات الخائنة الموالية للغرب على الاهالى .

وحتى تكون هذه القواعد على ارض مؤمنة سياسيا ، وحتى ترتبط العلاقة بين بعضها البعض ، ويتكون نوع من الهارمـــــونى الاستعمارى ، وحتى تتحقق فاعلية جميع هذه الخطوط التكتيكية وتحقيقها للاستراتيجية المرجوة ، تستكمل الخطة الامريكية بنودها وأركانها بتطويق افريقيا بالاحلاف العسكرية الاستعمارية .

وهنالك حتى الان مشروعان لافريقيا . .

فهناك مشروع الحزام الافريقى ، ويتكون من دول اواســـط افريقيا . . السودان والحبشة ، وكينيا ، واوعنده ، ويضم اليها غانا وبيجيريا . .

كما ان هنالك مشروع اخر موجه الينا مباشرة ، نحن شعوب العرب ، ويستهدف الى جوار كل الاهداف السابقة عزل الشــعوب العربية عن بعضها البعض ، بفصل عرب المغرب عن عرب المشرق ، كما يهدف الى وقف تيار القومية العربية المتجررة من الوصول الى

بلدان شمال افريقيا العربية ، حتى يستطيع ان يبقى مسيطرا على هذه المنطقة .. هذا المشروع يسمى باسم « حلف شمال افريقيا » وهذا المشروع كما رسمته امريكا على الورق يضم ، ليبيا ، وتونس ومراكش والجزائر .. ويرتبط هـــذا الحلف باسبانيا ، ثم بحلف الاطلنطى ..

هذا الحلف تريد الولايات المتحدة الامريكية ان تفرضه على هذه المنطقة حتى تستطيع ان تنقذ مايمكن انقاذه او ان تحفظ التوازن ، خاصة بعد نجاح ثورة شعب العراق فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ .. تلك الثورة التى اطاحت بحلف بغداد ، وقلبت كل موازين القوى فى الشرق الاوسط .

وبعد ان هوى عميل حلف بغداد .. نورى السعيد .. تحت ضربات الشعب العراقى ..

سلط الاستعمار الامريكى الاضواء على عميـــل حلف شـــمال افريقيا .. الحبيب بورقيبة ، جلاد الشعب التونسى .. فهو الذى اختارته الولايات المتحدة ليلعب دور الخيانة فى تكوين هذا الحلف .. أى فى تنفيذ سياستها التى تمكن من تكوين هذا الحلف ..

ولقد شاءت الظروف ، أن أعيش تجربة شمال افريقيا كاملة ، وان التقى بالحبيب بورقيبة مرارا فى تونس وفى باريس .

لذلك فاننى وانا اتعرض لحلف شمال افريقيا ، سأهتم بسرد واقع بلد عربى معين ، هى تونس وشعبها المكافح ، ولن يكون حديثنا عن بورقيبه الا من خلال دوره الذى رسمه له سادته ، لفرض هذا الحلف على شعب شمال افريقيا العربى ، ولضرب حركة التحـــرر الوطنى لعرب شمال افريقيا .. فالحبيب بورقيبة ليس اكثر من عميل دلف الى مبنى المخابرات الامريكية وعمل لحساب الان دالاس مدير المخابرات الامريكية .

فمشكلة العرب فى شمال افريقيا ، هى مشكلة حلف يراد فرضه .. وعميل يلعب دوره .. وما وقع فى الجامعة العربية اخيرا ، من تهجم على الجامعة العربية ، وترديد اتهامات وكالات الانباء الاستعمارية لبطل الوطنى جمال عبد الناصر .. ليس الا مناورة مكشوفة خائنة لعزل شمال افريقيا العربى ، عن تيار القومية العربية المتحررة ، عن مجموعة الدول العربية المتمسكة بسياسة الحياد الايجابى والتعايش السلمى ، عن جمهرة شعوب العرب ، المكافحة من اجل السـلام ، العاملة على رفع مستوى معيشتها ، والتقدم بظروف حياتها . . تحقيقا لاهداف وخطط الاستعمار الامريكى بواسطة فرض الحلف .. وصيانة حكم العميل ..

حلف شمال افريقيا .. والحبيب بورقيبة ..

●

الفصل الثانى

بداية الخيانة

عندما قلنا أن الولايات المتحدة الامريكية قد وقع اختيارها على الحبيب بورقيبة ، ليلعب دور العميل الذى ينفذ لها ماتريده فى شمال أفريقيا ، لم نكن متجنين على « فخامته » ، بقدر مالم تكن امريكا تلقائية فى ذلك الاختيار .. فالولايات المتحدة الامريكيــــة لم تختر « فخامته » اعتباطا ، بل كانت فى اختيارها له تستند على معلوماتها عنه ، ومعرفتها به ، **ودراستها الماضيه « الاكحل » اى الاسود باللغة التونسية** . فهذا الرجل الذى ادعى ، وتظاهر امام الناس ، بانه يقود حركة الاستقلال التونسية ، لم يكن وطنيا فى يوم من الايام ، ولا آمن فى لحظة من اللحظات ، بضرورة حصول بلده على الاستقلال التــام وافلاتها من سيطرة الاستعمار الغربى ، بل كل ماكان يريده ويبحث عنه هو السلطة .. هو ان يحكم تونس لفرنسا ، بدلا من ان يحكمها « دى لاتور » أو « هوتكلوك » أو « بايون » أو حتى « الباى » كان بورقيبه فرنسيا أكثر من الفرنسيين ، غربيا اكثر من الغربيين طيلة حياته ..

لكن لاداعى ان نستبق الاحداث ، فلنساير تونس وتاريخها ، ولنساير بورقيبه من خلال هذا التاريخ ..

الحماية ..

منذ احتلال فرنسا للجزائر ؛ والدولة الاستعمارية الاوروبية تبدى اهتماما كبيرا بالشئون التونسية ، وذلك للخيرات الطبيعيةالتى تزخر بها ارضها الطيبة . وكانت تونس فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، يحكمها ملك اسمه احمد باى الاول ؛ وكان غيورا على حرية بلاده ، لايتسامح ازاء اى تدخل اجنبى . كما كان احمد باى الملقب « بالمشير » مصلحا ، اقام صناعة الملح فى البلاد ، وبنى الثكنات والمدارس . الا ان الحالة المالية ساءت سريعا فى أيام خلفائه الذين كانوا يبعثرون المال بلا حساب ؛ حتى اضطروا الى اللجوء الى الاقتراض من الدول الاوروبية ، تماما كما حدث لمصر ايام الخديوى اسماعيل ، وعن طريق الدين استطاعت فرنسا ان تحصل على امتيازات كثيرة ، انتزعتها فى مقابل المساعدات المالية . ثم اخذ التنافس والتكالب على النفوذ يحتد بين فرنسا وايطاليا على تونس حتى قررت فرنسا ان تبادر فتسلك مسلك القوة ، وتلجأ الى أسلوب الاحتلال العسكرى ، الذى لم يكن يعوزه الا الباعث .

ولم تنتظر فرنسا طويلا ، فلم تلبث حكومة « جول فيرى » ان استغلت حادثا وقع على الحدود الجزائرية التونسية ، بين بعض أهالى بلدة خمير التونسية ، والجنود الفرنسيين .. فتذرعت فرنسا بهذا الحادث للتدخل المسلح . وسرعان ما اجتاز الجيش الفرنسى الحدود الجزائرية التونسية ، بقيادة الجنرال « فور جمول » بينما نزل الاميرال « بريار » من البحر على مقربة من العاصمة التونسية

وفى مساء ١٢ مايو ١٨٨١ ، فرضت فرنسا على الصادق باى ملك تونس ، توقيع معاهدة « قصر السعيد » المعروفة باسم معاهدة « بوردو » والتى تضاعفت قسوة نصوصها ، بعد هذا بعامين ، فيما عرف باتفاقية « المرسى » .

وكالعادة ، وكما حدث فى كل مكان ، وفى كل بلد نكب بالاستعمار

بدأت القصة بالحماية ، ثم تحولت الى حكم استعمارى ســــافر كامل شامل ..

وسار الزمن ، وكرت السنين ، وسط غبار المعارك الشعبية ، وروت الارض دماء شهداء الحركة الوطنية . وقامت الحرب العالميـة الاولى ، وظهرت مبادىء ويلسون الآثنى عشر .. وعادت جذوة ثورة الشعوب تشتعل من جديد بعد ان اطفأتها الى حين الحرب العالمية.

مولد انتهازى

وبينما كانت تونس ترزح تحت عبء الاستعمار الفرنسى .. ولد فى قرية « المنستير » الساحلية ، فى يوليو ١٩٠٣ ، لضابط مـلازم بالحرس الملكى ، له بنتان وخمسة أولاد ، الولد السادس .

كان الضابط اسمه بورقيبه .. واسمى ولده الحبيب .

وفقد الحبيب أمه فى الخامسة من عمره ، حيث رحل الى مدينة تونس ليعيش مع اخيه محمد الذى أدخله المدرسة « الصادقية » وانضم الحبيب وهو فى التاسعة عشرة الى الحزب الدستورى ، ونال البكالوريا سنة ١٩٢٤ ، فرحل الى فرنسا ، لاكمال دراسته ..

وحتى هذا ليس فى تاريخ فخامته شيئا يذكر الا انه كان يكره اللغة العربية ، التى لم يكن يجيدها ، مما استتبع كثرة وقوع العقاب عليه من مدرسه . وكان مغرما باللغة الفرنسية .. هذا الى جوار انه كان معقدا من قصر قامته .

وفى باريس ، أخذ ككل التلاميذ فى كلية الحقوق ، يقرأ ويدخل المسارح ، ويعيش فى الحى اللاتينى . وكان معجبا باشعار « فيكتور هوجو » ولكنه لم يمل أبدا الى المفكرين التقدمين ، كما لم يرض عما

يقيمه الفلاسفة الالمان من صروح نظرية .. وفي سنة ١٩٢٥ التقى **بورقيبه بالسيدة الفرنسية ، التي تزوجهـا ، وانجبت له ابنه جان السفير الحالي لتونس في فرنسا .**

وفي هذه الفترة التقى بورقيبه بطبيب شاب لعب فيما بعد دورا هاما في تاريخ الحزب الدستوري التونسي ، حتى فصله بورقيبه ، هو الدكتور الحكيم الماطري . وكان هذا الشاب مولعا بمقاومـة الاستعمار ، منجذبا الى الاحزاب الاشتراكية في فرنسا ، لكن خيب ظنه تذبذب الاشتراكيين بالنسبة لقضية بلاده .

وفي سنة ١٩٣٠ عاد بورقيبه الى تونس ، ولما رأى ماوصل اليه الشعب من بؤس ، واطلع على التخلف الاقتصادي والثقافي والسياسي الذي يعانيه ، لم يزد عن ان قال : ((**انني استنكر هذه الاوضاع ، لكنني لست من الدستوريين الذين ينكرون منافع الوجود الاجنبي وهم يرفضون نظام الحماية .. انني اعلم ان لهذه المطارات والمصانع والغابات التي شيدتها فرنسا اهمية اجتماعية**)) .

وكان بورقيبه يصرح بانه لايحب الثورات ، وانه يرى الا فائدة من اراقـة الدماء حتى ولو كان ذلك من اجل الحصـول على الاستقلال ، وانه يشمئز من هذه الوسيلة . ولكنـه يسعى فقط للوصول الى السلطان .. حتى يحصل على النفوذ الذي يمكنه من تحقيق الاصلاحات الداخلية التي يريدها لتونس .. والداخليـة فقط ..

ثم يتجه الى السلطات الاستعمارية قائلا : **انني ملاذكم الوحيدمن الماديين المتطرفين .. انني اكره المذاهب المادية الماركسية ، فالانسان في نظري ليس رهينا بالاوضاع الاقتصادية)) .**

ويقول أيضا : ((**انني تونسي المولد .. فرنسي غربي الفـكر والثقافة ..**))

لكن رغم كل هذا التهاون ، ورغم كل هذه المساومة ، ورغم ان بورقيبه لم يكن ، بأى حال يطالب بالاســــــــقلال التام لبلاده عن فرنسا ، بل كان كل مايطالب به هو الاصلاح ، والاصــــلاح فقط الا ان فرنسا لم تكن مستعدة في هذا الوقت حتى للاصلاح ولا للتهادن بل كانت تريد ان تستغل وتستعمر ، باسلوب مطلق ، فاستكثرت حتى آراء بورقيبه هذه واعتبرتها ثورة منه فاعتقلته .

لكن بورقيبه المتيم فى هوى فرنسا ، والاستعمار ، لم ينس هذا انحب حتى وهو فى السجن . فبينما كان فى سجن « فورسان‌نيكول» قرب مرسليليا عام ١٩٤٠ ، وكان معه زميله السيدصالح بن يوسف والزعيم التونسى يوسف الرويس . وكانت ادارة السجن الفرنسى تعامل المسجونين معاملة سيئة ، وتعـــذبهم وتهينهم بكل الوسائل البربرية التى عرفت ، واشتهرت بها فرنسا . فى هذه الاثناء كانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت ؛ وكانت معركة فرنسا على اشدها فاذا بالحبيب بورقيبة يرســــل خطابا الى « جاستون برنجيرى » النائب الفرنسى ، ورئيس تحرير جريدة « لافليش » ويقـــول له : **« اننى لاتعجب ، وانا صديق فرنسا ان اكون الان نزيل السجن ، انه ليؤلمنى ياسيدى ان ارى جيوشا اجنبية تحتل مــدينة فرنسية . واننى لاخشى ياسيدى ان تأتى القوات الايطالية وتعمل على اخراجى من السجن وتطلق سراحى بدلا من ان اخرج من هذا السجن بواسطة فرنسا ، وفرنسا فقط .. نعم لكم كنت اتمنى ان اغادر هذا السجن من اوسع ابوابه على ايدى سلطات فرنسية »**

وعندما استسلمت مرسيليا ، وقام ضباط السجن بانزال العلم الفرنسى المثلث الالوان ، من فوق ساريته ، بهت كل النزلاء العرب ، والتونسيون على وجه الخصوص ، عندما رأوا الحبيب بورقيبه ، وهو يجهش بالبكاء ، وقد تعلقت عيناه بالعلم الفرنسى ، وهو ينزل من على السارية .. وعلل ذلك بقوله : **« ان هذا العلم يمثل فى نظرى دولة من اعظم دول العالم ، واكثرها مدنية .. »**

ثم جاء الحبيب بورقيبه الى القاهرة ، فتلقته صحف القاهرة واذاعاتها ، كما تتلقى كل عربي مجاهد ، فقد كان يبدو هكذا ، ونفخت في صورته ، وجعلته زعيم تونس الاوحد .. ولقد أحس بورقيبة بهذا الضعف في شخصيته ، فأرسل الى الحزب الدستوري في تونس ، يطلب منهم تعيينه رئيسا للحزب ، لان ذلك سوف يجعله « **أجدر بالاهتمام في البلاد العربية ..** » وهكذا ، ومستغلا مرض رئيس الحزب في ذلك الوقت الدكتور الماطري .. عين بورقيبه رئيسا للحزب .

لكنه بالرغم من هذا ، وطوال الثلاث سنوات التي أقامها في القاهرة ، لم يستطع الانسجام مع الزعماء العرب ، ولا مع الجامعة العربية ، لطرقه المعوجة ولعلاقاته المريبة بالسفارة الفرنسية في القاهرة ..

فغادر مصر ، وأدلى بتصريح وهو لايزال في مطار القاهرة قال فيه : « **انني أعود الى تونس لاقنع الشعب بأن مستقبله ومصيره ونجاته في توجيه أنظاره الى فرنسا بصفة خاصة ، والغرب بصفة عامة ، فمصيرنا نحن في تونس وشمال أفريقيا ، يرتبط كل الارتباط بالغرب ، لا بالعالم العربي ، أما اذا كانت هنالك روابط دينية ، أو لغوية تربطنا ، فليس معنى ذلك أن نرتبط سياسيا بالعالم العربي .. فليست لنا أي مصلحة في ذلك .** »

وهكذا بدأت شخصية بورقيبة الحقيقية تتبلور .. ودوره الحقيقي يتضح أكثر .. ومن تونس سافر الحبيب الى فرنسا ، حيث اقام في ضاحية « فرساي » ، ماضيا وقته في مناقشة المثقفين الفرنسيين ، في ضرورة اجراء بعض الاصلاحات ، واعطاء مزيد من الحقوق للشعب التونسي ، والمساواة بين أبناء تونس ، والمستعمرين الاجانب « الكولون » .. وأحاديث من هذا القبيل ، دون أي ذكر للاستقلال ، ولا للعروبة .

وفى هذا الوقت من أواخر عام ١٩٥١ ، كانت فى تونس حكومة شعبية ، يرأسها السيد محمد شنيق ، وكان السيد صالح بن يوسف وزيرا للعدل فى هذه الوزارة .

وفى اكتوبر ١٩٥١ ، توجه وفد فرنسى الى باريس لاجراء محادثات هناك مع حكومة فرنسا . لكن الحكومة الفرنسية وجهت خطابا فى ١٥ يناير ١٩٥٢ الى حكومة « شنيق » ، أصرت فيه على ازدواج السلطة فى تونس ، أى أن تكون السلطة فرنسية تونسية ، ورفضت مبدأ الاستقلال اطلاقا .. حتى الاستقلال الداخلى .

وقرر الحزب الدستورى التونسى ، عقد مؤتمر فى ١٨ يناير ، لمناقشة الموقف . ولم يرأس بورقيبة هذا المؤتمر ، بل رأسه الشهيد الهادى شاكر ، الذى اغتالته عصابة « اليد الحمراء » الاستعمارية ، التى كان قد كونها ، « الجنرال بايون » ، قائد القوات الفرنسية فى تونس ، لاغتيال القادة الوطنيين .

وقرر مؤتمر ١٨ يناير ١٩٥٢ ...

١ — الكفاح من أجل الاستقلال التام بلا قيد ولا شرط .
٢ — الانضمام الى الجامعة العربية ، حسب الاتفاق الذى أمضاه على البهلوان مع عبد الرحمن عزام .
٣ — قطع المحادثات مع فرنسا ، ورفع القضية التونسية الى الامم المتحدة وتدويلها .

وعلى الفور خرجت مظاهرات برئاسة الشهيد ، فرحات حشاد ، الذى اغتيل فيما بعد ، ويقال ان للحبيب بورقيبه يدا فى اغتياله . وأعلن الاضراب العام ، الذى استمر ١٥ يوما كاملة .

وأمام شدة الاضراب واستمراره ، تقدم المقيم الفرنسى العام « هوتكلوك » بطلب الى الحكومة ، يأمرها فيه باصدار بيان تستنكر

غيه أعمال العنف ؛ وتطلب استئناف المفاوضات مع فرنســـا من جديد ..

لكن الحكومة اجابته فى مذكرة رسميـــة ، بأنه لايمكنها الدخول معه فى محادثات رسمية ، مادامت حكومة فرنسا لم تسحب رسالة ١٥ ديســمبر ١٩٥١ ، ولم توافق الحكومة الفرنسية بالطبع على هذا الرد ، واعتبرته توقحا من الحكومة فقامت باعتقـــال كل الوزراء . وكان صالح بن يوسف لايزال فى فرنسا ، فى ذلك الوقت ، ففر الى بلجيكا ، فسويسرا ، ثم وصل الى القاهرة ..

ومرت الايام ، والاضطرابات تعم شمال افريقيا ؛ والحرب دائرة فى آسيا ، بين قوات جيش التحرير الوطنى فى الهند الصينية ، بقيادة هوتشي منه ، والجنرال جياب ، والهزائم تتوالى فوق رأس فرنسا ، حتى وقعت معركة ديان بين‌فو المشهورة ، التى لم تحتملها اعصاب فرنسا ، وتأكدت أن معركتها الاسيوية خاسرة فاشلة ، لا محالة ؛ فأولى بها أن تنقذ مايمكن انقاذه ، ولتنفض يدها من الهند الصينية لتتفرغ لشمال أفريقيا ، بقرتها الحلوب الباقية ..

لكن فى هذا الوقت من عام ١٩٥٤ ، أغتيـــل الجنرال « بايون » قائد القوات الفرنسية فى تونس ، وزعيم « اليد الحمراء » الســـالف الذكر . أغتيل أمام باب القيادة العامة . فجاء منديس فرانس فى ٣١ يوليو ١٩٥٤ ، الى تونس ، وألقى خطابا أعلن فيـــه موافقته عـــلى الاستقلال الداخلى لتونس . وعاد الى فرنسا لكى يقول ، فى الجمعية الوطنية ، أمام نواب فرنسا : **« لو شاهدتم المكان الذى اغتيل فيـــه الجنرال بايون ، لآمنتم معى بضرورة منح هذا البلد نوعا من الاستقلال الذاتى . »**

وشكلت على الفور ، وزارة برياسة طاهر بن عمار ، وهو اقطاعى كبير ، صاحب ماض « اكحل » اى أسود ، فى التعاون مع فرنسا .

وضمت الوزارة الى جوارالوزراء المستقلين ، وزراء دستوريين أمرهم بورقيبة ، من معتقله فى فرنسا بالاشتراك فى الوزارة . هذا لان فرنسا طلبت منه هذا ، وهو يلبى طلبها دائمـــا .. حتى ولو كان محـدد الاقامة .

وبدات المفاوضات ، وكان وفد المفاوضـات مكونا من « المنجى سليم » (دستورى) وهو وزير دولة ، والصمودى مندوب الحزب فى باريس ، وعبد العزيز الجلولى وهومستقل ، وهكذا بدات المفاوضات وكان الكفاح المسلح ، لايزال مستمرا ضد فرنسا ، خاصة فى مناطق الجنوب . واشترطت فرنسا ايقاف الكفـــاح المسلح حتى تستمر المحادثات ، واستعد وفد المفاوضات للعودة ..

فى هذه الفترة ، كانت هنالك أزمة ديبلوماسية فى القـاهرة بين جمال عبد الناصر وحكومة فرنسا ، من أجل تحديد الاقامة الجبرى الذى فرضته فرنسا على بورقيبة فى فرنسا . ولم تكن مصر تعلم أنه هو الذى طلب هذا ، حتى يبتعد عن مسرح الاحداث فى تونس ، حتى تحين ساعة الصفر ، التى سوف يلعب فيها دوره .

وأمر بورقيبه المتفاوضين ، ان يقبلوا شروط فرنســا ، وكان صالح بن يوسف ، والباهى الادغم النائب الحالى لبورقيبة فى جنيف .. وكان فى **القاهرة ، مجاهد تونسى جليـل ، نحتفظ بذكر اسمه ، حتى لاينال تنكيل بورقيبة ، لانه على حد علمى لم يعتقل بعـد .. والتقى هذا المجاهد بالرئيس عبد الناصر ، ودار الحديث بالطبع عن كفاح الشعب التونسى ، وعرف المجاهد التونسى أن عبـد الناصر ، ومن ورائه مصر كلها ، بقلوبها وسواعدها وامكانياتها مع الشـعب التونسى فى جهاده الحق من أجل تحرير بلاده .. فطار الرجل الطيب الى جنيف ، وهو متهلل الوجه ، وقال ((للباهى الادغم)) اتصـل بالحبيب على الفور .. قل له يرفض المفاوضات .. ان مصر معنا .. ان عبد الناصر يؤيدنا .. عجل ..))**

لكن الباهي الادغم ، سكب الماء على حماس الشيخ الجليل وقال له : ((أصمت ولا تنبس ببنت شفة مما قاله لك عبـــد الناصر .. واحذر ان يبلغ كلامك هذا الى سي الحبيب بالذات ..)) وصمت الباهي الادغم وقال : ((هـذا الا اذا أردت ان يبلغ سي الحبيب كل كلمة قالها لك عبد الناصر لفرنسا .. ثم صمت ثانية الباهي الادغم وعاد يقول بصوت هامس ((ان رئيسنا الجليل متفق منذ حين مـع فرنسا .))

وكان صالح بن يوسف قد أرسل رسالة من جنيف الى مجلس الحزب المكون من أربعين عضوا ، يعارض فيها وقف الكفاح المسلح . لكن ارادة بورقيبة نفذت ، وسلم ســلاح جيش التحرير التونسي لفرنسا ، وأفرج عن بورقيبة على الفور ..

وعلى الفور أيضا ، قلبت فرنسا ظهر المجن لتونس ، وسـقط منديس فرانس . وجاء ادجار فور ، فاذا به يطالب باعادة النظر أصلا فى كل ما أبرم من اتفاقيات مبدئية ، مع منديس فرانس ، ورفض وفد المفاوضات واستعد ثانية للعودة ، لكن الحبيب بورقيبة انضم الى وفد المباحثات ، وأعلن قبوله لمبدأ المفاوضة على الاساس الذى أعلنه ((ادجارفور)) بل وأخذ يدلى بالتصريحات للصحف ، ممتدحا ((جيليه)) وزير شـئون تونس ومراكش فى وزارة ((فور)) .. واستمرت الحادثات الى يوم ٣ يونيو ١٩٥٥ حيث وقعت الاتفاقية الفرنسية التونسية ، دون أخذ رأى الحزب .

وأصيب الشعب التونسى بخيبة أمل كبرى .. فالاتفاقية التى أتى بها بورقيبة يعترف فى مادتها الثالثة باتفـاقية ((بوردو)) التى فرضت بها الحماية سنة ١٨٨١ ، واتفاقية المرسى أيضا . كما تعترف بكل ما للفرنسيين من حقوق شرعية وغير شرعية ، وتسلم لهم بقضاء قنصلى خاص مدة عشرين عاما ، ولا تنقل سلطة البوليس الا بعـد عشرة أعوام .

وفى المادة السادسة تلحق البلاد بفرنسا الحاقا تاما فى حالتى الحرب والسلم ، عن طريق وضع كافة امكانيات البلاد تحت طلب السلطات الفرنسية ، فى أى وقت ..

والاتفاقية لاتعطى تونس حق اقامة علاقات دبلوماسية مع البلاد الاخرى ، أو تكوين جيش ..

عندئذ اتى صالح بن يوسف الى القاهرة من جنيف ، وصرح بأن الاتفاقية خطوة الى الوراء ، لانها تكبل الشعب التونسى بقيود من حديد ، بل وأكثر من هذا تسبغ شرعية على وضع فرنسا فى تونس .. واخذ الحزب الدستورى يتصدع بين مؤيد ومعارض للاتفاق ..

وفى هذه الفترة اتصل سفير لبنان فى مصر بالسيد صالح بن يوسف ، وتوسط لديه بناء على تعليمات وصلته من حكومة لبنان الذى تلقى تعليمات من سفير فرنسا فى بيروت ، الذى تلقى تعليمات من ادجارفور .. غايته توسط لدى صالح بن يوسف الا يعارض فى اتفاقية فور ـ بورقيبة ، وسوف تذكر له فرنسا هذا .. بل انسفير لبنان عرض رئاسة الحكومة على صالح بن يوسف باسم حكومة فرنسا . وذلك بدلا من الرئيس الحالى ، فى ذلك الوقت كان طاهر بن عمار .. وغادر صالح بن يوسف القاهرة الى تونس فى ١٣ سبتمبر ١٩٥٥ .

وفى نفس اليوم الذى وصل فيه صالح بن يوسف الى تونس ، استقال طاهر بن عمار ، بايعاز من دار الاقامة العامة الفرنسية .

وعندما غادر صالح بن يوسف فى ذلك اليوم مطار « عوينه » ، توجه على الفور الى القصر الملكى لكى يوقع فى دفتر تشريفات الامين باى ، ملك تونس ، لكن هذا استقبله على الفور ، وقال له : **« انت ابنى وانا فى حاجة اليك فى هذه الظروف العصيبة .. والطاهراستقال**

قبل قدومك بساعتين .. وأنا بعد استشارة أهـل الرأى ، قررت تكليفك بتشكيل الوزارة » .

وشكر صالح بن يوسف الباى على هذه الثقة ، وقال له ، « ان لى رسالة أخرى سأؤديها . » ولم يكد بن يوسف ، يصل الى منزله الواقع فى « مون فليرى » بمدينة تونس ، حتى تجمـع حول المنزل حوالى ٢٠ ألف تونسى يهتفون بسقوط اتفاقية فور ـ بورقيبه .

وكان بورقيبة فى تونس ، حيث أسرع الى منزل صالح بن يوسف ، ولكن الاخير خرج الى الشرفة ، وفى أثره بورقيبه ، والقى صـالح بن يوسف خطابه المعروف الذى رفض فيه الاتفاقية بوصفه سكرتير عام الحزب الدستورى . وفى المساء اجتمعت الهيئة الادارية للحزب المكونة من ١١ عضوا ، وسط ثورة الجماهير وهياجها . وبدا ان الغالبية ، وقد تورطت فى تأييـدها للاتفاقية ، لاتؤيد بن يوسف ، فطلب بن يوسف منهم دعوة المؤتمر فورا فاذا أقر مؤتمـر الحـزب الاتفاق ، فهو على استعداد للاستقالة على الفور ، والعودة الى العمل بالمحاماة . لكن الهيئة رفضت دعوة المؤتمر . وظل الصراع داخليـا فى الحزب ، لايعرف عنه الرأى العام فى الخارج الا النذر اليسير ، لكن الرأى العام ، كان متوترا متربصا لما تتمخض عنه الاحداث . .

وجاء ١٠ اكتوبر الذى ألقى فيه صالح بن يوسف فى جامعـة « الزيتونة » خطابا أعلن فيه بحضور ١٣٠ ألف مواطن تونسى . .

١ ـ ضرورة ضمان حرية الرأى والاجتماع ..

٢ ـ تأييد قضية الجزائر .. وكانت هذه أول مرة يتبنى فيهـا الحزب رسميا مشكلة الجزائر .

٣ ـ تأييد قرارات مؤتمر باندونج .

٤ ـ التضامن مع الدول العربية المتحررة .

٥ ـ الكفاح ضد اتفاقية فور ـ بورقيبـة ، ودمغ كل من وقعهـا بالخيانة .

عنـــدئذ وقع ارتباك شديد فى صفوف الحزب . واحتج المقيم الفرنسي العام « دى لاتور » لدى الحكومة ، وفى مساء نفس اليوم ، أصدر الحبيب بورقيبة قرارا بفصل صالح بن يوسف من السكرتارية العامة للحزب ومن عضوية الحزب أيضا . فى حين يمنع القانون الاساسى للحزب ، فصل عضو عادى ، الا بقرار من مؤتمر الحزب ، ولا يخول للقيادة الا الحق فى ايقافه الى حين انعقاد المؤتمر .

وحدث رد الفعل فى صفوف الجماهير فى نفس اليوم ، فعقدت منظمات شباب الحزب التى كانت تمثـــل فى ذلك الحين ١٠٠ ألف شاب ، اجتماعا ، قررت فيه معارضة بورقيبة . وبعد يومين أعلنت منطقة « اجلاس » ، و « القيروان » بشعبها السبعين معـــارضته ، وأعلن ذلك القرار باسمهم المحامى الاستاذ يوسف القادرى .

ثم اجتمعت وفود الشبيبة والمناطق ، وجماهير الشعب فى مؤتمر وقرروا فصل الهيئة الادارية للحزب ، بما فيهم بورقيبة نفســه ، واتهموه بخيانة قضية الشعب . وكان « المنجى سليم » وزيرا للداخلية فى ذلك الوقت ، فاجتمع بالمقيم الفرنسى المســـيو دى لاتور ، الذى وضـــع جميع سلطات الامن والبوليس ، بل والجيش تحت امرة بورقيبة ، الذي لم تكن له أي صفة رسمية حتى هـــذه اللحظة . ووزعت على أنصاره الاسلحة ، وكانوا معظمهم من عمـــلاء الاقامة العامة . وكون منهم ماسماه بفرق « الرعاية » . .

أقام بورقيبة فى دار « الاقامة الفرنسية العامة » اذا ، وبدأ فى اصدار التعليمات ، وكانت أول تعليمات أصدرها ، بمنع اجتماعات المعارضة . ثم اغتيال زعماء المعارضين ، وكان اول شهيد سـقط ضحية الاغتيالات ، مختار بن عطية ، أحـد أبطال المقاومة ضـــد الاستعمار الفرنسى ، وزعيم جماعة « اليد الكحلة » الوطنية ، أى اليد السوداء ، كما سقط الشهيد المهداوى ، والمهذبى ، وسائق صالح بن يوسف الذى اغتيل اثناء محاولة اغتيـــال مخدومه . . فعمت

الثورة أنحاء البلاد ، وتعددت المصادمات بين قوات الامن الفرنسية التابعة لعصابة بورقيبة ، وجماهير الشعب الثائر .

واغلقت صحف « البلاغ » ، و « البلاغ الجديد » ، و «اليقظة » و « الاسبوع » ، و « صدى الزيتونة » ، و « العواصف » .

ثم صدر أمر بالقبض على صالح بن يوسف ، لكن أحد أنصاره ممن كانوا يتظاهرون بتأييـــد بورقيبـــة أبلغه الخبر سرا ، ففر من تونس . .

بينما أخذ بورقيبة يجوب أنحاء البـــلاد ، على رأس حملة من البوليس الفرنسي ، فى حمـــاية الطائرات والدبابات والحـــراب الاستعمارية ، ضاربا بكل قســـوة وبطش أى مقاومة أو معارضة ، لاتفاقيته الذليلة . .

بل لقد كان يدعو بورقيبه الناس فى كل مكان الى قبول الاستقلال الداخلى ، والتخلي عن ثورة الجزائر ، التى كان يصفها فى تصريحاته بأنها **« كارثة أصابت تونس ، تكاد تفقدنا ماحصلنا عليـــه من اســـتقلال داخلى . . »**

والحقيقة أن الثورة الجزائرية بالنسبة للعميل بورقيبة ستظل دائما كارثة تهدد مشاريعه ، ومشاريع الاستعمار الامريكى ، ســـيده الجديد ، الذى سيعمل لحسابه بعد فترة وجيزة ، وتبدو آمالهم فى السيطرة على شمال افريقيا .

وهكذا مكنت السلطات الفرنسية لبورقيبة من أجهزة البوليس ، ومن السلاح ، كى يلعب دوره بواســـطة أنصاره المأجورون ، الذين كون منهم عصابات فاشستية مسلحة ، تقوم باخماد ثورة الشـــعب التونسى .

لكن هذه الاعمال لم تزد ثورة الشعب الا اشتعالا ، كما دعمت من

مركز بورقيبة عند حكام فرنسا ، فأعلنت حكومة موليه ، استقلال تونس فى ٢٠ مارس ١٩٥٦ ، ولقد قال موليــه فى ذلك الحين ، ((**ان فرنسا تعلن استقلال تونس ، وان لم يطلبه الحبيب بورقيبة ، حتى تهدأ ثورة تونس ، وتعزل ثورة الجزائر ..))**

وفى يوم ١٤ ابريل رأس بورقيبة أول حكومة لتونس المستقلة .. فوق أكوام من جثث وأشلاء الضحايا ..

وبمناسبة تولى بورقيبه الرئاسة صرح جى موليه : ((**ان هذا لحدث سعيد ، يؤمن مستقبل فرنسا والغرب فى شمال افريقيـا ، لان ثورة الشعب التونسى لو تركت وشأنها ، لاكتسـحت البـلاد ، واصبحت بتساندها مع ثورة الجزائر ، خطرا لاقبل لفرنسا عـلى احتماله . وانه لمن حظ فرنسا ، أن يتولى الحبيب بورقيبة الحـكم فى تونس ، فهو الضمان الكبير لبقاء نفوذنا فىشمال افريقيا ، والقضاء على الثورة الجزائرية .))**

واشترطت فرنسا ، وهى تمنح الاستقلال لتونس ، أن تحتفظ بـ ٣٥ ألف جندى فرنسى فى تونس ، علاوة على قاعدة بنزرت .

وعندما ارتفعت الاصوات مطالبة بضرورة جلاء قوات فرنسـا عن تونس ، أعلن بورقيبة ، ((**ان هذه القوات تحمى بلادنا ، وان كفـاح** الجزائر لايهم شعب تونس)) .

وعادت الجماهير الى الثورة على بورقيبة من جديد .. وأسدل الارهاب ظلامه على تونس . وانطلقت جنود الرجعية كالبوم تنعق على أطلال الحرية التونسية الشهيدة . وغصت السجون بأحرار تونس ، حتى بلغ عدد المعتقلين المسجلين ٣٥٠٠٠ مســجون سياسى ، أغلبهم أساتذة ومدرسون ومثقفون ممن تعلموا فى البلاد العربية . لقـد أعتبر بورقيبه هذا التخرج قرينة على التحرر والايمــان بالقومية

العربية . لقد سجنهم بورقيبة دون تحقيق ، وان أخذ يحقق مع تلاميذهم ، حتى يعرف ماذا كانوا يقولون لهم .

لكننا نستطيع أن نقول ان المعتقلين أسعد حظا ، اذا ماقورن مصيرهم بمصيرغيرهم . فالمسجون ، له ضمانات ، فهو يسجل ويقيد بسجل معين ، ويعرف له محل اقامة . . أما غيرهم فقد كان مصيرهم أبشع . . لان فرق « الرعاية » الفاشستية بدأت عملية اغتيال للاحرار ، واختطافهم لتعذيبهم ثم الفتك بهم . وان قائمة بسيطة ، لامثال هذه الحوادث التى وقعت فى الفترة بين ٣٠ ابريل و١٦ مايو لكافية لتصوير مبلغ الجرم والتنكيل الذى وقع بالشعب التونسى وبأحراره . .

ففى يوم ٣٠ ابريل ١٩٥٦ اختطف فى مدينة ((مدنين)) ، أحمد عزايز ، مبروك الكاسمير ، الحاج على بن الحاج بلقاسم ، محمد بن شيبانى ، قصرين حج مبروك ، مبروك متولى ، عبد الله بن الفقى محمد .

وفى نفس اليوم فى ((منزل بوزلفا)) ، ضرب على خليفة زيادى ، حتى كاد يلفظ أنفاسه ، ثم اختطف ، كما أختطف محمد البالاى ، محمد الشيخ ، عبد الحميد بن ضيف الله ، حمدى المؤدب ، على سويسى ..

وفى أول مايو ، اختطف فى مدينة تونس ، على بن محمد مسعودى.

وفى ٣ مايو اختطف منجامعة الزيتونة ، وسط الطلاب ، بواسطة عصابة مدججة بالسلاح ، الطالب حسن تويرى .

وفى يوم ٤ مايو ، فى مدينة الحما ، اغتيل شخص لم يتعرف على شخصيته لتشويه وجهه ، وأصيب بطلق نارى السيد حبيب بن شرقاوى .

وفى يوم ٦ مايو فى مدينة تونس ، اختطف ، من على مقهى ، وسط الحى الاوروبى ، فارح بن حبيب ، رئيس اللجنة ((اليوسفية)) فى مدنين ، ومختار بن خليفة العضو بها .

وفى نفس اليوم اختطف فى مدينة سليمان ، بشير بولبابار عضو الاتحاد العام للزراعيين .

وفى مدينة محرز جنوب ، اعتدى على الكيلانى بن على بن صادق فى منزله ، أعتداء منكرا ثم اختطف .

وفى مدينة متين شمال ، اختطف عمر بن محمد العايضى .

وفى يوم ٧ مايو ، اختطف فى مدينة تونس ، وسط الحى الاوروبى فى شارع ((جول فيرى)) ، لاروسى المحرصى . وفى حى ((السـيدة منوبيا)) ، اعتدت عصابة من ١٢ شخصا مسلحا على مختار بن احمد تليلى ..

وفى يوم ٨ ، اعتدى على سليمان بن محمد أزج دويرى ، فى متجره ثم اختطف بعد نهب المتجر .

وفى نفس اليوم فى تونس أيضا ، اعتدى على بلقاسم بن محمد باش دويرى ، وأحمد بن على بن سعادة الجمل فى سوق الجمل ، واقتيد الى مكان مجهول .

كما داهمت عصابة مسلحة متجر على بن سليم دويرى ، وحطمته ونهبت ما فيه .

وفى يوم ٨ ، فى ((دجاش جريد)) جنوب ، ارسل الى مكان مجهول السيد موسى الرويسى ، عبد الرحمن الكيلانى ، مصطفى بن محمد حميدا ، عبد الله حابا ، محمد بن على المحرر بجريدة ((الصباح)) المعارضة .

وفى يوم ٩ فى تونس ، اختطف من مكتبه ((بباو سويقا)) الاستاذ صادق بو جلال المحامى . وكذلك الاستاذ مهدى بن ناصر ، وعمر فصاح مدير جريدة ((البلاغ الجديد)) ، والمدرس عبد الرحمن بن خليفة ، محمد بن منصور دباد ، عمر جانوشى أمين صندوق اتحاد عام الزراعيين التونسيين .

وفى يوم ١٠ فى مدينة تونس، اختطف جيلانى بن احمد فارس، واخوه بغدادى .

وفى يوم ١١ فى مدينة تونس ايضـــا اختطف شابلى بن عاشور من مطعم فى ((باب الخضرا)) ، والاستاذ يوسف الخاضرى المحامى ، واحمد بن محمد عوينى ، وكيلانى بن على بن صادق ، واخوه فيتورى ولوساى بن محمد الاغربى ، وعلى بن محمد بن سيد ، وعلى بن محمد سلاما ، وحمادى بن مشاط .

وفى يوم ١٢ فى مدينة تونس ، اختطف فى شارع ((شارل ديجول)) عبد الله بن سالم بو خشيم .

وفى يوم ١٤ ، فى مدينة ((فوشامه)) ، اختطف عياد بن سيدبريش أمين صندوق فرع الاتحاد العام للزراعيين ، وكذلك احمد بن على بن احمد .

وفى نفس اليوم فى ((سيليانا)) ، اقتيد الى مكان مجهول الشيخ الجليل ، والاب الروحى للبلدة ، الذى كان كثيراً ما آثار حمية أبنائها على الثورة على الفرنسيين فى خطبه الدينية ، والبالغ من العمر ٦٠ عاما ، عبد الستار بن عبد الملك . وفى نفس اليوم فى ضواحى مدينة تونس اختطف عمار على الفول .

وفى يوم ١٦ ، فى مدينة تونس ، اقتيد الى مكان مجهول ، وسط

سوق تونس المركزى ، وفى وضح النهار السيد محمد ياسين ، عضو المجلس التونسى الاعلى ، وعضو اتحاد عام الزراعيين ..

وهكذا مهد الحبيب بورقيبة الطريق لحكمه .. وصفى كل قوى المعارضة لكى يلعب دوره الذى رسمه له الاستعمار ، فيتمكن من عزل تونس عن البلاد العربية ، وعن تيار القومية العربية ، وعن سياسة الحياد الايجابى ، والتعايش السلمى ، عن ركب التحرر والعـــزة القومية .. وحتى يتمكن من ربط ليبيا الى عجلته ، وضم مراكش الى سياسته ، ثم تصفية ثورة الجزائر لحساب الاستعمار الامريكى ، وأحلاف أمريكا .. حلف شمال أفريقيا .. ولمشاريع أمريكا .. مشاريع احتكار واستغلال كل ثروات أفريقيا .

الفصـل الثالث

أمريكا تظهر على المسرح

وضح فى الفصل الاول من هذا الكتاب بجلاء الهدف الذى تسعى اليه الولايات المتحدة الامريكية . وهو السيطرة على المستعمرات السابقة والحالية للدول الاستعمارية القديمة وجعل هذه البلدان وشعوبها خاضعة لاستغلال الاحتكارات الامريكية وقواعد عسكرية لسياستها العدوانية ، تثب منها على البلدان التى تعترض طريقها او تخرج عن طاعتها ، ولا تنخرط فى سلك اتباعها ..

ولم تجد امريكا وهى تشرع فى تطبيق هذه السياسة فى شمال افريقيا خيرا من بورقيبه ، تستعمله لتحقيق اهدافها الاستراتيجية ضد شعبه ، وبنى وطنه ، بل ضد امته كلها ..

لكن كان على امريكا ان تتصرف بحذر حتى لاتستفز فرنسا ، حليفتها فى الكتلة الغربية ، والبلد الهام فى حلف الاطلنطى ، وألا تثير ريبتها ، بصدد اطماعها فى شمال افريقيا الذى تعتبره فرنسا مجال ومنطقة نفوذها الحيوية .. كما كان لابد لامريكا من ان تعمل على عزل ليبيا عن الجمهورية العربية ، وكذلك مراكش وان تعمل على اخماد الثورة الجزائرية بأى شكل ، دون ان تحقق الثورة نصرا كاملا على فرنسا ، خشية ان تلجأ فى هذه الحالة الى الارتباط بالجامعة

العربية او اعتناق مذهب القومية العربية ، الذى تعتبر امريكا انه لايقل خطورة عن الشيوعية نفسها .

واتجهت الخطة الامريكية فى شمال أفريقيا ، الى أنه بتمام عزل ليبيا وتونس والجزائر ومراكش عن الجامعة العربية ، وتيار القومية العربية ، يكون الطريق ممهدا ، كما ترى وشنطن ، لخلق كتلة اقتصادية تابعة لها وعسكرية تعمل لحسابها فى شمال افريقيا .

وهنا اخذ واضعو الخطط الاستراتيجية الامريكية فى شمال افريقيا ، يحللون الموقف فيها على الصورة الاتية :

ان هناك حقيقة لاجدال فيها ، هى أن شمال افريقيا ، قد أصبح مشكلة كبيرة ولا حل لها ، بالنسبة للدبلوماسية الغربية ..

ان فرنسا تنفق بليون ونصف بليون دولار فى العام على حرب الجزائر كما انها تجند فى هذه الحرب ٧٥٠ ألف جندى تقريبا مع انها لاتستطيع تحقيق هزيمة حاسمة ساحقة ضد الثوار الوطنيين فى نفس الوقت الذى لاتستطيع امريكا ان تساعدها فيه بطريقة مباشرة وعلنية ، لانها تخشى فقدان شعون العرب لها فقدانا كاملا ، والى الابد ، وحتى لاتحرج فى نفس الوقت عملاءها وصنائعها ومريديها اللذين مازالوا يحذرون شعوب العرب من ناحيتها بدعوى ان امريكا محرجة مع حلفائها الفرنسيين ، والانجليز ، وانها ستغير سياستها ، وتتبع معنا طريقا ، واسلوبا جديدا .

و فى نفس الوقت ، كانت امريكا ، ولازالت طبعا ، مهتمة جدا ، باستغلال ١٠٠ مليون طن من البترول ، اكتشفت حديثا فى جنوب الجزائر عند « ادجيلة » ، ولم تستطع فرنسا استغلالها . . ولاتستطيع امريكا ان تتدخل الآن ، والظروف على ماهى عليها ، لاستغلالها . . لانها تخشى على عواطف فرنسا ، وعلى حلف الاطلنطى وفى نفس الوقت ، وحتى لو فرض ووافقت فرنسا وعقدت اتفاقا مع امريكا

بشأن البترول الجزائرى ، فان امريكا لاتريد أن تظهر بمظهر المعترف بحق فرنسا فى الجزائر اعترافا كاملا ، لانها تريد أن تستعمل دورها المزدوج بالنسبة لقضية الجزائر وسياستها ذات الوجهين فى المناطق الخاضعة لنفوذها .. الوجه الزائف البراق ، المنقوش بشعارات التحرر ومبادىء العالم الحر ، على انغام « الروك آندرول » واضواء النيون ليت .. والوجه الحقيقى البشع ، المخضوب بدم الضحايا وعرق المستغلين ، من مناجم الفضة فى الإكوادور ، الى آبار البترول فى الظهران .

ولنعد الى نظرة امريكا الى شمال افريقيا ، فنجد انها تستغل ناحية اخرى ،هى العلاقات الفرنسية التونسية المراكشية .. فالولايات المتحدة قد فطنت جيدا الى حقيقة العلاقات ، بين محميات فرنسا السابقة فى شمال أفريقيا وبينها . أو قل هى التى بثت هذا الوضع ، وأوجدته ..

فالشعب التونسى ، مهما كان مخدوعا فى بورقيبة ، ومهما كان الضغط الواقع عليه . فانه لايمكن ان يقبل ابدا علاقات وطيدة وثيقة مع فرنسا التى ذاق على يديها الهوان .. والتى اعتدت على الجمهورية العربية المتحدة مع انجلترا واسرائيل .. هذا علاوة على حربها التى تشنها على الجزائر ، رغم الدور الحقيقى ، والمشاعر الحقيقية التى يكنها بورقيبه لكفاح الشعب الجزائرى ونضاله .

وشعب وحكومة مراكش ، كذلك لاتستطيع أن تحتفظ بعلاقات ودية وثيقة مع فرنسا فى مثل هذه الظروف ..

هكذا ، وبالرغم من ان حكومتى هذين البلدين ، هما من اكثر حكومات العالم العربى موالاة للغرب ، الا ان موقف فرنسا ، وتاريخ فرنسا بالنسبة لها ، وبالنسبة لشعوب العرب ، يجعل حكام هذه البلاد ، وان كانوا ميالين اليها فى قرارة نفوسهم ، الا أنهم عاجزون عن

عن التعاون معها علنا ، وبصفة مطلقة . ثم كان عجز فرنسا عن تقديم المساعدات الاقتصادية التى وعدت بها تونس ومراكش كنتيجة للازمات الاقتصادية التى لاتستطيع فرنسا الفكاك منها .

كل هذه الامور ، فتحت الباب أمام امريكا ، وامام النفوذ الامريكى لكى يتسرب الى هذه البلاد عن طريق المساعدات الامريكية . تلك المساعدات التى وان تلكأت امريكا فى تقديمها الى تونس ومراكش فى بادىء الامر ، الا انها نتيجة للتطورات التى طرات على الموقف السياسى والموقف الدولى فى الاعوام الاخيرة ، الى جوار التطورات التى حدثت داخل فرنسا نفسها ، منذ ١٣ مايو ١٩٥٨ ، أثر ثورة ضباط الجزائر ووصول ديجول للحكم .. نتيجة لكل هذا اخذت امريكا فى ارسال المساعدات لتونس ومراكش ، وان لم تكن مساعدات طويلة الامد ، على الاقل فى المرحلة الحالية ، التى لم يتضح فيها الموقف بعد ، وضوحا كاملا ، نتيجة لاستمرار الحرب الجزائرية ، ولانتشار تيار القومية العربية بين صفوف جماهير الشعب فى هذه المنطقة ..

الا ان امريكا بدات العمل فى تحقيق البنيان الذى تريده من خلال العمل نفسه فوضعت خطة ذات شعبتين . . وتضمن لهـا ضرب عصفورين بحجر واحد .. ان تكون مايسمى باتحاد شمال افريقيا من ليبيا ، وتونس ومراكش والجزائر .

ثم تاخذ فى تنفيذ الشعبة الثانية من البرنامج ، وهو ان تربط هذا الاتحاد بعجلتها بواسطة حلف عسكرى ، اسمه حلف شمال افريقيا .. فتتمم بذلك سيطرتها على المنطقة ، وثانيا وهو الاهم ، عزل هذه المنطقة عن تيار القومية العربية ، المسيطر على الشرق .

الخطة

ولقد وضعت بالفعل خطة كبيرة لضمان تحقيق هذا المشروع ، الذى تهتم الولايات المتحدة الامريكية ، وقبل كل شىء آخر باتمامه.

وحتى لاتصطدم امريكا بفرنسا ، أعد المشروع فى ظاهره ، على
ساس ان هذا الاتحاد ، سوف يرتبط بفرنسا اقتصاديا .. لكن
لاوضاع الاقتصادية فى فرنسا ، وعدم الاستقرار المالى المسيطر عليها
ن يسمح لها بتقديم رؤوس الاموال الكافية ، لمشاريع التنمية
والاستثمار التى يتطلبها الاتحاد ، فتتقدم بالاموال فى هذه الحالة ،
مجموعات روكفلر ، وديبون ، ومورجان ، وغيرها من المؤسسات
الامريكية البحتة ، أو المؤسسات الفرنسية ذات الراسمال المشترك
الامريكى ــ الفرنسى ، بمساعدات فنية ومالية ، تضمن تنفيذ هذه
المشروعات فى شمال افريقيا . وهكذا تكون لامريكا فى النهايةالسيطرة
الاقتصاديةعلى تلك المجموعة من البلدانالعربية ، التى يصفهاالحبيب
بورقيبه بانها ، ((**جماعة شمال افريقيا الفرنسية**)) .

ومن جهة أخرى ، أى الشعبة الثانية للمشروع ، تهدفالولايات
المتحدة الامريكية الى ربط هذا الاتحاد بحلف عسكرى معها ، يجعل
هذا الاتحاد الكائن فى تقاطع الطرق بين اوروبا والشرق الاوسط ،
وافريقيا .. مواليا للغرب .

وتهدف امريكا من وراء هذا ، الى قطع كل علاقة يمكن أن تقوم
بين عرب المشرق وعرب المغرب . وان تعزل ليبيا عن التعاون الثقافى
والفنى مع الجمهورية العربية المتحدة .. وان تجعل قواعد امريكا
الست فى « النواصر » ، و « بن جرير » ، و « سلا » ، و « سيدى
سليمان » ، و « القنيطرة » ، والقاعدة البحرية فى « الدار البيضاء »
.. فى مراكش . وقاعدة « بنزرت » فى تونس ، وقاعدة و « يلوس »
العسكرية فى ليبيا ، فى اراضى آمنة سياسيا . والاكثر أهمية من
ذلك فى نظر أمريكا ، هو انها تريد أن يكون لمشروعها هذا أثر ، ولو
فى المدى البعيد ، على سياسات الدول المستقلة حديثا ، بأن تتمكن
أمريكا من آن تثبت لهذه البلدان ، انه من الممكن تكوين علاقات مع
المعسكر الغربى ، تكون أكثر فاعلية ، وأعم فائدة من سياسة الحياد
الايجابى .

اتحاد ضد الاستعمار

ان الاسـلوب الاستعماري يتكرر . . فكما اقامت الدوائر الاستعمـارية في العـراق والاردن في فبراير ١٩٥٨ الاتحـاد العربي الهاشمي ؛ لكي تصارع به الجمهورية العربية المتحدة الناشئة لجأت الولايات المتحدة الى نفس الاسلوب بالنسبة لرغبة شـعب شمال افريقيا في الوحدة والانضمام الى الجامعة العربية ، والاندماج مع تيار القومية العربية المتحررة .. فاستغلت هذه الرغبة القديمة عند الشعب العربي في شمال افريقيا كي تعمل على خلق اتحاد زائف تربطه بأحلافها ، وتجعل منه فعلامنطقة نفوذ لاحتكاراتها الاقتصادية واستغلالها الاستعماري .

ففكرة الوحدة ، موجودة في كيان عرب شمال افريقيا ، ككل العرب من المحيط الهادى الى الخليج الثائر ، بل ان شعوب هـذه المنطقة ، كانت مرتبطة ، منذ زمان ، في كل شيء ، الا الارتبـاط السياسي .. ولكنهم الآن ، بفضل وحدة المعركة ضد الاستعمار ؛ ووحدة المصلحة في التحرر من السيطرة والاستغلال ، يسيرون في طريق الوحـدة العربية المعادية للاستعمار ، الوحدة التي يريدها المشروع الامريكي ..

ففي ٤ يونيو ١٩٥٧ أصدر احد الاحزاب المراكشية بيانا قال فيه : « **ان عملنا الموحد يجب ان يتأكد بكل قوته بالنسبة للقضية الجزائرية بالذات .. اننا نحن المراكشيين ، والتونسيين ، نعتبر قضية الشعب الجزائري قضيتنا الذاتية . ولهذا ، فاننا لانستطيع ان نقبل في هذا الميدان اي تهاون ، أو مساومات أو حياد ، يمكن أن يفيد منه الاستعمار** » .

واننا لو عدنا قليلا الى الوراء ، لوجدنا ان الاستعمار ، والكفـاح

ضد الاستعمار ، والرغبة فى القضاء عليه ، وايقاع الهزيمة الساحقة النكراء بجبروته ، انما كانت هى دائما الحافز لشعوب العرب على الاتحاد ، وأن هذه الشعوب لم تتحد فى تاريخها أبدا من أجل حمايته والعمل على خدمته .

وانه لفى تاريخ الاحتلال الفرنسى نفسه لشمال أفريقيا ، أصدق مثل على صحة هذا الكلام .. لكن هل تعى فرنسا .. وهل تعى امريكا .. وهل يعى بورقيبه .. !؟

فبينما كانت فرنسا ، طوال عشرات السنين الماضية تحاول ، فرض سيطرتها على شمال افريقيا .. كانت تطبق دائما السياسة الاستعمارية « الكلاسيكية » التقليدية ، « فرق تسد » .. وكانت تبرز دائما الفرق بين الجزائر « المندمجـــــة » وتونس ومراكش « المحميات » ..

وحتى بين تونس ومراكش ، « المحميات» كانت فرنسا تستعمل احيانا أسلوب المهادنة لاحد البلدين ، فى الوقت الذى تشـدد فيـه النكير على البلد الآخر .. وكانت تونس ، تستمتع فى غالب الاحيان ببعض الميزات الممنوحة من فرنسا ، والتى تجعلها فى حالة أحسن نسبيا من الجزائر ، ومراكش .. وبهذه الطريقة كانت فرنسا تأمل ان تنجح فى التفرقة بين شعوب المنطقة كلها ، وان تتجنب النشاط الوطنى الجماعى لشعوب شمال افريقيا .

لكن ارتباط حياة الشعوب الذى يكون كلا لايتجزأ ، جعل وجود الاستعمار ذاته ، يخلق بنفسه عناصر الوحدة الشعبية .. فقدكانت المدارس الفرنسية ، تجمع فى مكان واحد كافة شباب شمال افريقيا وكانت فرنسا عن طريق سياستها التعليمية تريد ان تخلق « رجالا فرنسيين» من العرب ، أو على الاقل موالين لفرنسا . لكنها لم تستطع أن تخرج بطريقتها هذه ، الا جماعة من الشبان ، يملؤهم الاعتداد

بانفسهم وبالعلم الذى تلقوه ، والاحساس بالقدرة على تسيير دفة شئونهم بطريقة لاتقل ، ان لم تكن أحسن من الطريقة التى يديرها بها الفرنسيون .

لكنهم كانوا دائما ضحية [illegible] طهاد العنصرى والاستعمارى ، لا لشىء الا لانهم عرب . وهكذا تضافرت الاحاسيس الموروثة مع المبادىء المقروءة ، التى أخذوها عن روسو ومنتسكيو ، وغيرهم من الكتاب الفرنسيين ، والعالميين الذين كتبوا عن كرامة الانسان ، وعزة الشعوب لكى تؤدى بهم الى تكوين « اتحاد طلبة شمال افريقيا »

وكانت مبادىء هذا الاتحاد ، التى اعلنت عند تكوينه فى سنة ١٩٣٠ ..

١ ـ شمال افريقيا وحدة لاتنقسم

٢ ـ شمال افريقيا امة عربية ويجب ان يظل هكذا الى الابد .

٣ ـ شمال افريقيا شعب عربى واحد .. لغته وثقافته وعاداته يجب أن تكون واحدة .

٤ ـ شمال افريقيا ، بلد واحد ، يلتزم اولاده لكى يدافعوا عنه بان يكونوا جبهة واحدة ضد الاستعمار ..

الوحدة من اجل التحرر ، ولكفاح الاستعمار .. ليست لخدمة المستعمر كما تريد امريكا ..

الجزائر حجر الزاوية

كان هذا هو الاتجاه ، الذى اعتنقه طلاب شمال افريقيا ، فى الوقت الذى كان الحبيب بورقيبه يتبع فيه اسلوب « فابيانيا » ، ينادى بانه فى الامكان تحقيق مكاسب اكثر عن طريق التصرف المنفرد .. وكان بورقيبه يؤمن بنظرية « التكافل مع فرنسا » ومؤداها عند

التطبيق ،ان أسلوب العمل من اجل الاستقلال الذاتى ، انما يقوم على التعاون والتفاهم بين تونس وفرنسا .. ولهذا كان يقول : **«لقد استمع الى الشعب التونسى عندما تحدثت اليه فى عدة خطب سابقة بان اى تونسى يعتدى على فرنسى ، فكأنه اعتدى على أنا ..»**

لكن امثال هذه الكلمات ، وتلك المحاولات ، لاتنفذ الى ضمير الشعب .. فالاستعماريون ، يفرقون بين الشعوب اذا تضافرت فى كفاحهم .. ويجمعونها عندما يريدون تكبيلها ..

وهكذا كان نضال الشعب العربى فى شمال افريقيا ضدالاستعمار يجمع كل القوى الشريفة فى هذه البلاد لحل قضية واحدة ، هى قضية التحرر الوطنى ..

لذلك نجد كل شعوب شمال افريقيا ، تقوم قومة رجل واحد للاحتجاج على اعتقال علال الفاسى سنة ١٩٣٦ ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، وصفت بقية الانقسامات السياسية التى زرعها الاستعمار بين القوى الوطنية فى شمال افريقيا . ثم شحذت وعود قادة الحلفاء بمنح الحرية « للشعوب المحتلة » عزائم المجاهدين .. وتقدم احمد بلافريج ، رئيس وزراء مراكش الحالى ، وعلال الفاسى ووحدا قواها ، وكونا أول تنظيم سياسى هام فى مراكش هو « الحزب الوطنى » الذى لم يلبث أن لاقى تأييدالسلطانمحمدالخامس

وكذلك دفعت رياح التحرر شباب الجزائر وشعبها الى التخلى عن التفكير فى شعارات الساسة القدامى ، فى أن يصبحوا فرنسيين « أحسن حالا » ويسود الرأى المنادى بالكفاح من أجل ان يصبحوا « جزائريين احرارا .. »

وهكذا لم يأت فبراير ١٩٥٢ ، الا وكانت كل احزاب تونس والجزائر ومراكش ، ترسل بيانا مشتركا ، للسكرتير العام للامم

المتحدة ، تستنكر فيه الضغط على تونس . وفى ديسمبر من هـذا العام ، عمت مظاهرات الاحتجاج ، والاضرابات جميع أنحاء شمال افريقيا مستنكرة اغتيال الزعيم النقابى التونسى ، الشهيد فرحات حشاد ثم وقعت اتفاقية القاهرة لعام ١٩٥٣ ، بين قادة شمال افريقيا ، التى تعاهدوا فيها الا يقوم ولا ينفرد واحد منهم بأى تسوية مع فرنسا تكون ضارة بالاخرين .

كل هذه الوقائع تدل على ان ، الوحدة .. وحدة العمل والمصلحة والعدو .. كانت قائمة للكفاح ضد الاستعماريين بين القوى الوطنية فى شمال افريقيا ..

لكن بورقيبه ، طبعا ، كان مستعدا للتفاوض مع فرنسا فى أى وقت ، حتى ولو اضر هذا ، بأى بلد عربى آخر . وهكذا وقع اتفاقية الحكم الذاتى سنة ١٩٥٥ ، تلك الاتفاقية التى حررت جزءا كبيرا من القوات الفرنسية المرابطة فى تونس ، واطلقتها على الجزائر كى تنضم الى عمليات القمع ، التى كانت قائمة على قدم وساق فى الجزائر ومراكش .. وهكذا اتهم بورقيبه بالخيانة ، من كل شعب الجزائر ومراكش منذ عام ١٩٥٥ .

بقيت الجزائر تناضل . .واصبحت مشكلة الجزائر تؤرق مضجع الاستعمار والعملاء .. فالاستعمار العالمى ، وامريكا على رأسه يريد ان يصفى هذه المشكلة . وامريكا لاتستطيع ان تبدأ فى تنفيذ مشروعها فى الوحدة والحلف مادامت حرب الجزائر مستمرة ..

وبورقيبة علاوة على كونه عميلا ، يضيره مايضير الاستعمار ، الا انه صاحب مصلحة شخصية فى فشل الثورة الجزائرية . فهو صاحب نظرية « التكافل الفرنسى » . ونجاح الثورة الجزائرية ، عن طريق الكفاح المسلح ، تكذيب عملى لنظريته هذه .. ولما كانت الجامعة العربية والجمهورية العربية المتحدة بالذات ، تقف موقفا صلبا

لاهوادة فيه وراء كفاح الشعب الجزائرى ، كان هذا هو من اهم الاسباب التى أوغرت قلب بورقيبة على العروبة **والرئيس عبد الناصر بالذات .**

لهذا .. حاول بورقيبة أن يقلل من اهمية قضية الجزائر فى بادىء الامر ، بل وان يهملها ، لانها **((اصغر من أن تشغل تفكيره))** كما كان يقول : ولثقته فى قوة ونفوذ امريكا ، وقدرتها على تصفية هذه الثورة ..

لكنه لم لايلبث ان تبين له ولامريكا ايضا ، انه لايمكن الاقلال من ثورة الجزائر . واهميتها ، وانه لايمكن اسقاط حساب قادتها الشبان ، أمثال « بن بللا » و « بن خيضر » ، الذى كان يسميهم ((**متمردين**)) وكان يرى فيهم ((**غلمان تنقصهم الخبرة السياسية ، كانوا الى وقت قريب طلبة فى باريس**))

لكن ثورة الجزائر بدأت تصبح خطراعلى بورقيبة . فعلى الرغم من الاستقلال الكامل الذى منحه له موليه فى مارس ١٩٥٦ بعد ان احتفظت فرنسا لنفسها بحق ابقاء ٣٥ الف جندى فرنسى فى تونس لحاجتها اليهم فى حراسة الحدود الجزائرية ، الى جوار قاعدة بنزرت .. أخذ الشعب التونسى يحس بالحسرة للدور الذى تقوم به هذه القوات على الحدود ، ووجودها كقاعدة خلفية للانقضاض على الشعب الجزائرى . كما ان وجود هذه القوات أدى الى وقوع حوادث اليمة . وبدأ الشعب التونسى يثور على هذه القوات التى تلاحق قوات جيش التحرير الوطنى الجزائرى حتى داخل الاراضى التونسية نفسها . وأصبح لسان حال الشعب التونسى يقول « ان الاستقلال يكون عارا مادمنا لانزال نحتفظ بقوات فرنسية هنا » .

كما ان وجدان الشعب التونسى ، كان يثور لرؤية حوالى ٢٠٠ الف مهاجر مدنى جزائرى ، يفدون الى تونس جماعات ، فرارا من

بطش جنود فرنسا ، ولما يسمع من روايات تقص قصص المذابح ، والاعمال الوحشية التي تمارسها فرنسا في الجزائر .. فرنسا صديقة بورقيبه ..

فرنسا حليفة امريكا .. فرنسا العضو في حلف الاطلنطي الذي يريد « فخامته » ويريد له الاستعمار ان يربط مصير عرب شمال افريقيا بمعسكرها الاستعماري عدو الانسانية ..

لقد اصبحت ثورة الجزائر شوكة تهدد كل احلام الولايات المتحدة .. وبالتالي بورقيبه ..

وبدأ العمل على وقف ثورة الجزائر بأي شكل .. من اجل الحلف .. ومن اجل الاتحاد الذي سيرتبط بالحلف .

وبدأت وساطة بورقيبه بين الحكومة الفرنسية ، واحرار الجزائر وأخذ « فخامته » يحض الجزائريين على الاعتدال في مطالبتهم بالاستقلال الكامل ، وان يكتفوا بالحكم الذاتي الداخلي .. وكان « فخامته » قد افهم جي موليه ، رئيس وزراء فرنسا ، انه في استطاعته ، ان يجعل الجزائريين يكتفون « بالادارة الداخلية »، داخل الاتحاد الفرنسي ، فاذا ما انضمت الجزائر الى حلف شمال افريقيا ، انضمت فرنسا اتوماتيكيا ، او انضمت الجزائر بانضمام فرنسا .. كله واحد .. كل الطرق تؤدي الى روما .. أقصد حلف شمال افريقيا .

وبعد أن قام بورقيبه بعدة أتصالات مبدئية ، بقادة جبهة التحرر الوطني الجزائري ، أحس بأن « بن بللا » حجر عثرة أمام أي تفاهم لوقف اطلاق النار ، الشرط الذي وضعته فرنسا ، ووافقت عليه أمريكا لبدء المحادثات .. وكان بن بللا في الرباط بمراكش واقترح بورقيبه عقد مؤتمر في شهر اكتوبر سنة ١٩٥٦ بمدينة تونس ،

لمناقشة المبادىء التى يمكن على أساسها بدء محادثات فرنسية جزائرية ، ووقف اطلاق النار . .

لكن بن بللا ورفاقه اختطفوا وهم فى الطريق الى بورقيبه . . وسلموا لفرنسا . . وكان بورقيبه يعلم من جنرال فرنسى بانهم سيخطفون . . كما كان يعلم ان قائد الطائرة القادم عليها بن بللا فرنسى ، ولم يحاول اخطارهم على الاقل . .

وطبعا لم يعقد مؤتمر تونس . . مؤتمر اكتوبر ١٩٥٦ .

لكن الولايات المتحدة ، ومن ورائها بورقيبه ، لم تيأس من محاولة انهاء الحرب الجزائرية ، العقبة الكؤود التى تعترض طريق حلف شمال افريقيا ، بل على العكس أخذت تضاعف نشاطها لايقاف الحرب واخماد الثورة ولذلك استدعى البيت الابيض فى اواخر نوفمبر ١٩٥٦ ، ألحبيب بورقيبه . . ودارت فى واشنطن محادثات ، حضرها فوستر دلاس ، وزير الخارجية وماكلروى وزير الدفاع ، وتشرمان آدمز ، مستشار أيزنهاور السابق . ولم يدل أحد بتصريحات اثر الاجتماع الاول . . كما لم يسجل مادار فيه فى محضر مكتوب .

ثم حدث اجتماع آخر بين بورقيبه وآلان دالاس ، مدير مخابرات امريكا ، يوم ٢٩ نوفمبر . . ولم يحضر هذا الاجتماع أحد غيرهما ، كما لم تنشر عنه الصحف شيئا فى حينه . . وبالطبع ليس هنالك محضر مكتوب ، سجل فيه مادار فى هذا الاجتماع من حديث . .

لكن الدوائر المطلعة ، التى لايتطرق الى معلوماتها شك ، والمكتب العربى فى نيويورك ، استطاعت ان تتأكد من ان المحادثات التى دارت فى « البيت الابيض » وسط التكتم الشديد انما دارت حول قضية الجزائر ، وطريقة انهاء الحرب هناك واخماد الثورة باسرع مايمكن كما تعهدت امريكا بدفع معونة اقتصادية لبورقيبه ، على ان يعمل من جانبه على منع ثوار الجزائر من الاستمرار فى القتال . **وعندئذ**

فقط يمكن تحقيق وحدة شمال افريقيا ((الفيدرالية)) تحت زعامة بورقيبـــه السياسية مـع احتفاظ كل دولة مشتركة فى الحلف بشخصيتها .. وبعد ذلك يقام حلف شمال افريقيا وهو مايهدف اليه الاستعمار ..

وأخذت تصريحات بورقيبه تحمل طابع المشروع الامريكى .. فمن تصريحاته التى أدلى بها ، أثناء وجوده فى أمريكا ، ابان هـــذه المحادثات ، ماقال فيه : **((نحن مع الغرب وسنظل دائما معه ، لابحكم موقعنا الجغرافى فقط ، بل بحكم ثقافتنا وتقاليدنا ..))**

وعندما وصل الى تونس ، صرح بقوله : **((لقد اتفقت مع الرئيس ايزنهاور على ان يتوسط لحل قضية الجزائر ..))**

وأخذ بورقيبه يقوم باتصالات عديدة مع ساسة مراكش وتونس وليبيا ، واخذ يعرض عليهم اسس الحلف الجديد ، الذى سمى فى الاوراق الرسمية باسم « حلف غربى البحر الابيض » ، ويرتبط بأمريكا عن طريق حلف الاطلنطى ..

واتصل بورقيبه أيضا بقادة « جبهة التحرر الوطنى الجزائرى » وعرض عليهم العرض الامريكى الذى أحضره لهم من الان دالاس .. وكان يتكون من ثلاث نقاط :

١ ـ ان يوقف الثوار اطلاق النار .

٢ ـ تشكيل حكومـــة جزائرية تدير شئون الجزائر فى نطاق الاتحاد الفرنسى .

٣ ـ تدخل الجزائر فى ((حلف غربى البحر الابيض))

وكان جواب ثوار الجزائر على بورقيبه ، مختصراً ، واضحا ، وقاطعا .. كان جوابهم .. لا ..

وكانت « لا » هذه معناها ، وضع الحلف الجديد على الرف ..
ولو الى حين حتى يظهر بصورة أخرى ..

وفى هذه المرة ايضا لم تيأس امريكا ، ولم ييأس الحبيب بورقيبه الذى تعده أمريكا ليكون الزعيم السياسى **لاتحاد شمال افريقيا** ، كما كان نورى السعيد الزعيم السياسى للاتحاد العربى الهاشمى .

واخذت أبواق الدعاية الآمريكية تنفخ فى صورته وتقول عنه انه **« اقدر رجل سياسى فى شمال افريقيا .. »**

كما ورد فى تقرير نيكسون للرئيس ايزنهاور ، أثر رحلتــه الى شمال افريقيا : **« ان الرئيس التونسى الحبيب بورقيبه هو الرجــل الوحيد الذى يستطيع وقف ثورة الجزائر .. وينقذ بذلك تونس ومراكش وليبيا من امتداد الثورة اليها ، فنتجنب نحن الامــريكان الكارثة التى تقضى على مشروعاتنا فى شمال افريقيا وتنسف اركان حلف الاطلنطى . فواجبنا يقضى بان نمــــد الحبيب بورقيبه بكل المساعدات التى تمكنه من وقف الثورة الجزائرية وانهائها ، اذ انها الحجر الكئود الذى يعترض تنفيذ خططنا فى ضم شمال افريقيا ، باقطاره الى حلف الاطلنطى ، وتامين اخطر جبهة لنا ، وأهم نقطــة ارتكاز نعتمد عليها ضد أعدائنا . »**

وفى تقرير آخر وضعته الخارجية الامريكية ، نجدها تقــول : **« ان شمال افريقيا ، فى مجاعة ، وتعطل ، وفقر ومرض . ان هـــذا الوضع مؤسف جدا .. ليس فقط لانه يخضع هــذه البــلاد تماما لعروض المعونة « الشيوعية » و « الناصرية » .. بل لان المنطقة تحوى علاوة على ذلك ، ثروة كبيرة من المــوارد البكر ، كالبترول والاورانيوم ، والفوسفات ، والحديد ، والتى ان استغلت يمكن ان تكون ذات فائدة كبيرة للولايات المتحدة الامريكية ..**

وكانت التعليمات قد صدرت الى بورقيبه من الآن دالاس ..

ومن العجيب أن يكون آلان دالاس مدير المخابرات ، هو دائما حلقة الاتصال مع بورقيبه .. لعل هذا هو تقليد امريكا مع العملاء .. وليس مع رؤساء الدول الحقيقيين .. جاءته التعليمات بأن يبدأ من جديد فى تنفيذ خطة الحلف فى نطاق دول شمال افريقيا ، وذلك بان يعقد اتفاقات **مع ليبيا ومراكش لابعادها عن الجمهورية العربيــــة المتحدة** ، تمهيدا لضمها للحلف عندما تنجح امريكا فى اخماد ثورة الجزائر ..

وتقول فى هذا الصدد ، لورناهان ، أستاذة العلوم الســياسية بجامعة « تمبل » الآمريكية : فى تحقيقها الذى نشرته مجلة الشئون الخارجية ، وهى اكبر مجلة سياسية فى امريكا « **يبدو ان الطريق الى الشرق الاوسط وافريقيا ، قد اصبح مسدودا فى جناحه الشرقى .. وليس هناك الا طريق واحد ، هو أن نكسب المغرب العربى الى صف الغرب ، بان نوحده تحت قيادة زعيم موال لنا ، وبذلك نسحب المغرب العربى من دائرة الحياد الايجابى وندخل منه الى افريقيــــا والشرق الاوسط .. ان مجرد نجاح هذه الخطة هو ضربة للقاهرة** ».

وتستمر لورنا هان فى كلامها قائلة : « **ان بورقيبة نظر الى جارته ليبيا ، وهى دولة منكورة حتى الآن ، تنقصها الثروة العــادية من أى نوع كانت ، وفقيرة جدا ، رغم السنوات التى أمضتها الامم المتحــدة وهى تغذيها بالملعقة . .. ان هناك اعتبارات أخرى وراء توحيـــد المغرب ، الى جوار الحاجة الى وسائل ايجابية اكثر لمحاربة الشيوعية ، وهى الرغبة فى الابقاء على نفوذ مصر بعيدا عن شمال افريقيا . واتباع سياسة خارجية مستقلة عن الجامعة العربية ..** » !

ثم تقول لورناهان : « **ان بورقيبة والرجال الذين حوله ، لايعطفون على الحياد الايجابى الذى تنادى به الجامعة العربيــة ، ولذلك ينكر بورقيبة سياسة الرئيس عبد الناصر الخارجية . !** ».

والحقيقة أن لورناهان صادقة فى كل ماقالتـــه عن بورقيبـــة ، وموقفه ازاء سياسة الجمهورية العربية المتحدة الخارجية ، ومبادىء الرئيس عبد الناصر ، التى أصبحت دستور الحركة الوطنية للشعب العربى .. فالحبيب بورقيبة نفسه يصف هـذه السياسة كالآتى : **« اننا نشعر أن هذه السياسة مغامرة ، وليست واقعيـة . واننـا نشعر أن التمادى فيها يؤدى الى المخاطرة والاضرار ، ليس فقط بكل العرب ، بل وأيضا بكل الشعوب المكافحة من أجل حريتها . ! ! »**

عجيب ! !

ثم يتكلم بورقيبة عن الحيـــاد الايجابى ويقـول : **« ان موقفهم بالنسبة للكتلتين اللتين تقتسمان العالم غير سليم ، بينما حـــددنا موقفنا بوضوح منذ ١٩٥٢ ، وهو معروف جيدا ، اننى أومن بكل اخلاص أن الحياد الحقيقى مستحيل .. انه وهم ، ولا يتواءم مـع مصالحنا قطعا .. اننى أومن أن النظرية التى تكون الاساس الذى يقوم عليه العالم الشيوعى ، لايمكن أن تكون شيئا طيبا لو طبقت فى بلادنا . اننى أرى أنه من الضرورى لنا أن نتعاون مع الغرب الديمقراطى .. »**

وفى ٦ ينـــاير ١٩٥٧ ، كان بورقيبة قد وقع مع رئيس وزراء ليبيا ، اتفاقية الاخاء وحسن الجوار .. وقال بورقيبة فى حفلة توقيع هذا الاتفاق ، **« اننا مقتنعون أنه فى بلاد شمال افريقيا يوجد تضامن مغربى ، تفرضه الظروف الاقتصادية التاريخية والجغرافية .. لقد قادتنا مجهوداتنا الى تقوية هذا التضامن لكى نجعل منه أداة للتعاون مع الغرب الذى نحن جزء منه . »**

وعلقت جريدة « العمل » التونسية ، لسان حال جماعة بورقيبة على هذه الاتفاقيـة بقولها : **« ان الانسان يستطيع التقدم بسرعة على ضفاف البحر الابيض المتوسط ، أكثر منـــه فى صالونات الجـامعة العربية .. »**

كما أن المحادثات التى بدأت ، ابان زيارة سلطان مراكش لتونس

فى اكتوبر ١٩٥٦ ، الى اتفاقية الرباط ، التى وقعها بورقيبة فى ٣٠ مارس ١٩٥٧ ، مع محمد بلافريج ، ابان زيارة الرئيس التونسى لمراكش . لكن اتفاقية الرباط لم تبرز فيها ناحية التآمر كما بدا فى الاتفاقية الليبية ، لانه كما قال عنها احد المراقبين السياسيين الامريكيين : « **ان اتفاقية التضامن والصداقة التونسية المراكشية ، قد تجنبت النغمات المعادية لعبد الناصر ، بسبب قوة العواطف المؤيدة لمصر ، المنتشرة فى مراكش ..** »

لكن كل المعلقين ، والمراقبين الامريكان ، اجمعوا على أن وجهة النظر الامريكية هى عزل شمال افريقيا عن الجامعة العربية ، وعن الجمهورية العربية المتحدة بالذات ، ذلك الاجراء الذى تعتبره الولايات المتحدة ضروريا لاقامة الحلف الذى تريده ، لربط بلدان شمال افريقيا بعجلة حلف الاطلنطى ، لتحارب القومية العربية وسياسة الحياد الايجابى فى هذه المنطقة ..

اما عن عودة الاستعمار الامريكى ، عن أسلوب منع تونس ومراكش من الانضمام للجامعة العربية ، فلقد وضح الدافع اليه ، والغرض منه فى أول جلسة حضرها مندوب تونس .. وهذا موضوع بحث اخر .. غير أننا نستطيع ان نقول أن أحد أسباب دخول تونس الجامعة ، أنما كان لترجيح الكفة التى اختل توازنها بتحرر العراق اثر ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ المظفرة ..

أخذت الولايات المتحدة تفكر فى الباب الذى تنفذ منه رؤوس الاموال الامريكية لشمال افريقيا ، تطبيقا لنظرية المساعدات المالية والفنية ، الذى تحدث عنه نلسون روكفلر فى رسالته الى ايزنهاور ..

وقد كانت فرنسا هى الباب ..

لانه اثر اعلان استقلال تونس أعلنت فرنسا انها ستستمر فى الاهتمام ، بما أسمته ، « الاستقلال الاقتصادى لتونس » ، وحذرت

فرنسا ، أى دولة عضو فى حلف الاطلنطى من التدخل فى مساعداتها لشمال افريقيا .. وكانت تعنى بهذا أمريكا بالذات .. لكن فرنسا التى كانت وعدت تونس بمعونة تبلغ ٢٨ مليون دولار ، لم تستطيع ان توفى بهذا الالتزام ، نظرا للازمات المالية والاقتصادية المتلاحقة التى هى غارقة فيها ، ولم تدفع من هذه المعونة الا النذر اليسير ..

وانتهزت أمريكا الفرصة .. ملوحة فى وجه فرنسا ، بخطر تسرب القومية العربية الى هذه المنطقة ، ونفوذها ، عن طريق المعونة العربية ، ودفعت الولايات المتحدة فى ٣٠ يونيو ١٩٥٧ لبورقيبة ٥ مليون جنيه لبضائع استهلاكية تباع فى تونس ، وتتبرع بأرباحها لمشاريع التنمية التونسية ، كما دفعت أمريكا نصف مليون دولار للمساعدة الفنية . علاوة على ٦ر٥ مليون دولار . ثم جاءت بعثة ريتشاردز ، وأخذت تونس ٣ مليون دولار ، واستلمت تونس أسلحة صغيرة بمبلغ ٩٢٥٠٠ دولار . وكانت هذه المبالغ فى مجموعها ، التى تسلمتها تونس ، بضائع استهلاكية وأسلحة صغيرة ، لقمع المظاهرات ، هى الدرع الذى احتمى وراءه بورقيبة ليبرر أمام الشعب الخدعة السياسية التى لعبها . والتهالك على أقدام المستعمرين الذى جعله يقول « **ان واجباتنا يفرضها أيضا موقفنا ، وهى عدم اغلاق الباب فى وجه أصحاب المقاصد الصادقة ، الذين يحملون معهم طاقة روحية أو مادية .. وواجباتنا أيضا تفرض علينا التعاون السلمى مع جيراننا ، والسعى للتوفيق بين العالم العربى ، وعالم الغرب .. وهناك أيضا ضرورة فرضتها الجغرافيا ، وهى أن تيارات المبادلات ، تدفعنا الى الامم المتقدمة فى ميادين التجهيز والواقعة على الساحل المقابل . اننا فى المجال الاقتصادى لاوروبا الغربية ، لذلك كان علينا أن نختار مسلكنا ، ونرسم خطة لحياتنا فى العالم الغربى ، بوصفنا احدى دول العالم الحر** » ..

وبمجرد أن قبض الحبيب بورقيبة المبلغ بدأ فى انفاقه على الفور .. وكان هناك مشروع لتحويل ثكنات الجيش الفرنسى ، فى مدينة

تونس ، الى جامعة تونسية ، يتلقى فيها ابناء تونس العلم . لكنه أمر بهدم هذه الثكنات الفرنسية ، واقام على أنقاضها ميدانا فسيحا ، اقام لنفسه فى وسطه تمثالا مرتفعا ، ووصل مابين هذا الميدان وساحل البحر ، بطريق طويل . وعريض ، تحيط به الحدائق ، وتحف به الاشجار ، حتى يظهر التمثال القادم ، وهو لايزال فى عرض البحر ، كما يظهر تمثال « الحرية » للقادم من البحر عند مدخل نيويورك »

بل ان بورقيبة ، عندما توجه الى روما فى زيارة قريبة استمرت اسبوعين ، لم يكن قد ذهب لاى شيء يتعلق بمصالح شعب تونس ، أو قضايا عرب شمال افريقيا . بل ذهب الى روما ، كى يجلس أمام المثال الايطالى الذى تعاقدت معه الحكومة التونسية لصناعة تمثال « فخامة الرئيس » بالحجم الطبيعى ..

ويتكلف مشروع الميدان ، والتمثال ، والشارع الطويل ، العريض .. والاشجار والحدائق ٤ مليون جنيه .. اى حوالى ١١ مليون دولار .. اى كل ماوصل تونس من عون أمريكى حتى تشييد التمثال ..

لعلنا قد قطعنا الموضوع ، لكنه مثل بسيط لابد من ذكره ، حتى نعرف كيف تنفق أموال المعونة الامريكية .. هل هى لصالح الشعب وتنمية اقتصاده الوطنى .. ام لحساب العملاء ونزواتهم ، وعلى حساب استغلال الشعب واستنزاف ثرواته لصالح المستعمر ..

هكذا اذا تسربت امريكا الى شمال افريقيا .. وربطت بلدانها بمساعداتها المالية . وخلقت العملاء الذين يعملون لحسابها ، وأعدت كل شيء لتكوين اتحاد شمال افريقيا ، بمعزل عن تيار القومية العربية ، وسياسة الحياد الايجابى والتعايش السلمى ، والتضامن الاسيوى الافريقى .. وأعدت العدة لربط هذه البلدان بحليف عسكرى معها ، يربط هذا الحلف بحلف الاطلنطى ..

الا أنه بقى شيء واحد .. .

شيء واحد لم يتم ..

حجر الزاوية الذى يقوم عليه البناء كله ..

ثورة شعب الجزائر !

الشعب العربى كله ، من المحيط الهادر ، الى الخليج الثائر ، يقف وقفة رجل واحد وذراع واحد فى سبيل انتصار هذه الثورة ، وهذا الشعب فى معركته انتصارا كاملا ..

والولايات المتحدة الامريكية ، والاستعمار العالمى ، والحبيب بورقيبة ، وكل العملاء يودون لهذه الثورة أن تخمد ، ولحرب التحرير أن تنطفىء جذوتها ، فى مقابل ادارة ذاتية داخل الاتحاد الفرنسى ، ذلك العرض الذى رفضه أحرار الجزائر ، ورفضه الشعب العربى منذ أعوام ..

لقد تكونت حكومة الجزائر الحرة ، واعتمدت دول الجامعة العربية ، ١٢ مليون جنيه سنويا لتدعيم كفاح شعبه الجزائر .. حتى الاستقلال التام ..

وليذهب الحلف مع الطوفان ...

الفصل الرابع

كابوس قومى

بما أن أمريكا قد اختارت بورقيبة ليكون رجلها فى شمال افريقيا .. ولما كانت قد اختارت تونس ، لكى تكون قاعدتها التى تنقض منها على بلدان هذه المنطقة ، فانه يصبح من الاهمية بمكان ، واستكمالا للصورة ، أن نلقى نظرة على تونس ، والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يعيش فيها الشعب التونسى .

ان الرئيس التونسى بورقيبة يصرح دائما ، أنه غربى ، وأن تونس من الغرب ، وان مصالحها مرتبطة بالغرب ..

وماذا فى الغرب .. هل هو شبح .. هل هو وحش يلتهم الشعوب .. هل نحن متجنون على هؤلاء الساسة الذين يصرحون برغبتهم فى التعاون مع الغــرب ! ؟ ان رئيس تونس قال لمستر جولدمان رئيس المؤتمر الصهيونى العالمى ، ((ان فلسطين لاتهمنــا نحن التونسيين والذى يهمنا هو الخطر الشيوعى ، وموجات القومية العربية .. أما اسرائيل فليس منها أى خطر علينا ..

ماذا فى هذا الكلام ، وقد يكون فى معاداة تونس لاسرائيل اضرار

بالرخاء الذى ينعم به الشعب التونسى ، فى ظل التعاون مع الغرب والصداقة مع اسرائيل ! !

ان الحبيب بورقيبة ، عندما احتلت امريكا لبنـــان ، وانجلترا الاردن قال ، **((أن هذا ليس احتلالا . وانمـا مسـاعدات تقدمهـا حكومات مستقلة الى حكومات مستقلة ..))**

ووقف المنجى سليم ، مندوبه فى الامم المتحدة يعارض اجمـاع العرب ، ويرفض استنكار اعتداء الدولتين الاستعماريتين ..

وماذا فى هذا ، لو كانت انجلترا وأمريكا ، بل وكل دول الاستعمار تتعاون لتصنيع تونس ، وتعمل على أن يعيش الشـعب التونسى فى بحبوحة ، حتى ولو كانت بحبوحتها هـذه على حساب التضـامن العربى ..

فليكن بورقيبة صديق من يكون ، لو كان هذا على الاقل ، لايضر بمستوى معيشة ، أو حرية شعبه ، ولا تستعمل هذه الصــداقة فى العدوان على حرية الشعوب الاخرى ، ان الشــعوب الشقيقة فى شمال افريقيا ، تعرف موقفها من هذه الصداقات .. وكذلك الشعوب العربية فى الشرق الاوسط ..

لكننا يجب أن نعرف الثمن الذى يدفعه الشعب التونسى نفسه ، فى صداقات بورقيبة .. هنالك من يقولون أن بورقيبة مصلح . وانه قد قلب تونس الى جنة .. هو استعمارى ، استعمارى .. لـكنه مصلح ..

قد يكون مصلح فعلا ، اذا اعتبرنا قرية ((المنستير)) الواقعة على البحر ، والتى ولد فيها بورقيبة ، هى كل تونس ، فانها البلد المحظوظ السعيد ، لانها مسقط رأس فخـامته . فمشروعات السـياحة ، والفنادق ، والميناء الجديد ((لمنستير)) ، فهى البـلد التى تسكنهـا

عائلته .. بل ان السفارات تحض على فتح مقار لها هناك ، وتعد هذه البلدة كي تكون المقر الصيفي للحكومة التونسية .

هذه هي اصلاحات بورقيبة ، وتونس تعاني ضائقة مالية عنيفة، رغم مساعدات امريكا ، والضرائب تجبى من الاهالي بوسائل قاسية تصل الى حد الجلد .. وليطرد الهادي نويره وزير المالية من الوزارة لمدة شهر تأديبا له على اعتراضه على أسراف فخامة الرئيس ، ثم يعود عندما يعود عقله الى راسه ، ويعلم أن هـــذه هي بلد بورقيبـــة ، والامريكان .

بل ان وكيله الباهي الادغم ، لايسلم من الاعتداء عليه بالضرب في اجتماع مجلس الوزراء ، اذا حاول المعارضة في مـد انابيب البترول الفرنســـية من الجزائر على الاراضي التونسية ، لانه يخشى ثورة الشعب ، فيقول له بورقيبة وهو يعــدو خلفه ، **« أنا تونس .. أنا الشعب .. بورقيبة هو تونس .. »**

بل ان جريدته ، وجريدة حزبه التي تصــدر باللغة الفرنسية ، « الاكسيون » ، والتي كان يشرف عليهـا وزير ارشاده الســابق ، البشير بن يحمد ، لاتسلم من الغلق ، لان محرريها انتقدوا البطء في اصدار الدستور ، وانتقدوا موافقة بورقيبـــة على نقل رفاة موتى اليهود ، الى اسرائيل ، على حســـاب تونس ، الذي يكلف الدولة ٢٠ الف جنيه .

واذا احتج على هذا المصمودي ، سفيره في باريس ، فانه يطرد من منصبه ويعين في مكانه ابنه الحبيب بن الحبيب بورقيبة ، واسمه الحقيقي « جان » .. بل أن هذا الرجل ، سلم كل مقاليـــد تونس ، وأرزاق تونس لرجل صهيوني ، اسمه « اندريا باروخ » . واستوزره على ثلاث وزارات ، وهو الرئيس لفرع المؤتمر اليهــودي العــالمي في تونس ..

هذا الصهيونى ، وصل الى تونس ، وهو متخف فى زى تاجر عادى ، تبلغ ثروته ١٠٠ ألف جنيه ، وكان يقوم باستيراد القطن المغزول من فرنسا ، ويورده لصناع النسيج فى تونس ، الى أن أصبح باروخ من الاحتكاريين الكبار ، أصحاب الصلات مع الاحتكاريين الفرنسيين .. لقد كان يبيع ، للتجار بالتقسيط ، بأسعار تزيد عن الثمن الاصلى بكثير . وعن طريق الربا ، أصبح يحتكر صناعة نسيج القطن فى تونس ، وأصبح يتحكم فيما لايقل عن ١٥٠ ألف أسرة تونسية ، وأصبحت ثروته ، لاتقل عن ٤ مليون جنيه .

وفوجىء الناس ، فى ١٤ ابريل ١٩٥٦ ، عندما تولى الحبيب رئاسة الحكومة ، باندريا باروخ ، وقد أصبح وزيرا للتعدين وهى خاصة بالمناجم ، ووزيرا للاشغال ، ووزيرا للتعمير .. وهكذا سيطر باروخ على اقتصاد تونس ، مع استمراره فى القيام بالمقاولات ، التى تطلبها وزارة التعمير ، التابعة له ، واستمراره فى عمليات الربا التى يمارسها عن طريق صفقات التقسيط فى شراء القطن .

ولباروخ دور آخر فى توجيه سياسة الحكومة ، انه حلقة الاتصال الاولى بين المخابرات الامريكية وبورقيبة ، وبوصفه رئيس فرع المؤتمر اليهودى العالمى فى تونس ، كان هو حلقة الاتصال بين بورقيبة واسرائيل ..

ولم يكتف باروخ بهذا ، بل انه يقرض الحكومة التونسية من ماله الخاص . ففى القرض الذى طرحته الحكومة للتصنيع الذى لم يتم حتى الآن .. بلغ القرض مليون ونصف ، وساهم هو فيه بنصف مليون .

وهكذا الاحوال فى تونس .. لاحريات .. لا دستور .. خيانة .. تآمر على القومية العربية .. فساد .. رشوة .. التعاون مع الصهيونية العالمية .. وتعاون مع الاستعمار ..

كل هذا .. والشعب التونسى .. يعانى من المجاعة ، والبطالة والامية .

٧٥ عاما من الاستعمار

ان شعب تونس الذى قاسى من الاستعمار ٧٥ عاما ، ليحس ، وله كل الحق ، أن حياته فى ظل حكم الحبيب بورقيبة ، انما هى استمرار لحياته فى ظل الاستعمار ، مع تغير الاسماء ، وجنسية الحاكمين ..

ان تونس بلد زراعى حتى الان ، كما كان الحال فى مصر الملكية الاقطاعية المحتلة و٨٥ ٪ من سكانها يعيشون على الزراعة . فمن سكانها الذين يبلغ عددهم ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ ، لايقطن المدن منهم الا حوالى ٥٤٠ الف فى مدينة تونس ، و٢٣٠ الف فى الخمس مدن الكبيرة الاخرى ، التى تلى العاصمة فى الكبر .

وباحصائية بسيطة ، ومقارنة ، بين القيمة التقريبية للانتاج الزراعى ، والقيمة التقريبية لانتاج المناجم والمصانع نجد أن نسبة الزراعة الى الصناعة ٥ : ١ ، أى حوالى من ٦٠ الى ٦٥ مليون جنيه للانتاج الزراعى ، ومن ١٣ الى ١٤ مليون جنيه بالنسبة للمناجم والمصانع .

انتاج المصانع والمناجم

النوع	الانتاج بالطن	القيمة التقريبية بالجنيه المصرى
فوسفات	١٫٨٠٠٫٠٠٠	٥٫٤٠٠٫٠٠٠
حديد	٩٣٠٫٠٠٠	٣٫٥٠٠٫٠٠٠
رصاص	٣٦٫٠٠٠	٢٫٣٥٠٫٠٠٠
أسمنت	٢١٣٫٠٠٠	١٫٣٠٠٫٠٠٠
سوبر فسفات	٩٣٫٠٠٠	٨٥٠٫٠٠٠

الانتاج الزراعى

النبيذ بالهيكتولير	الانتاج	القيمة التقريبية بالجنيه المصرى
الحنطة (الجافة) بالقنطار	٣ر٥٠٠ر٠٠٠	١٤ر٠٠٠ر٠٠٠
الحنطة (اللينة) بالقنطار	١ر٨٠٠ر٠٠٠٠	٦ر٠٠٠ر٠٠٠
الشعير بالطن	١ر٩٠٠ر٠٠٠	٤ر٠٠٠ر٠٠٠
الزيت بالطن	٥١ر٠٠٠	٩ر٢٠٠ر٠٠٠
الموالح بالطن	٤٢ر٠٠٠	١ر٢٠٠ر٠٠٠
الحالفا بالطن	١٠٨ر٠٠٠	١ر٤٠٠ر٠٠٠
البلح بالطن	٢٥ر٠٠٠	١ر٣٠٠ر٠٠٠
الخضر بالطن	٤٥ر٠٠٠	٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠
الماشية	٧٤٠ر٠٠٠	٢ر٦٠٠ر٠٠٠

لكن هذه الثروة الزراعية الضخمة ، محرمة على التونسيين فقد حرم المستعمرون الاوروبيون ويسمون « الكولون » أبناء تونس من أجود أراضيهم ، وأحسنها خصوبة ، وأصبح تسعة اغشار الفلاحين التونسيين فوجدوا أنفسهم وقد طردوا من أرضهم ، وأرغموا على الرحيل الى الجنوب .

واستولى « الكولون » على ربع الارض الصالح للزراعة تقريبا . ويقع فى هذا الربع ، حوالى ٩٠ ٪ من الارض الكاملة الخصوبة .

وقد قامت عمليات نزع الملكية الجماعية ، فى عهد الحماية بتوجيه ضربة قاضية للفلاح التونسى ، واستولى عليها « الكولون » فى مقابل ٤٠ قرش للهكتار من الارض المستصلحة ومن ٢ جنيه الى ٤ جنيهات للهكتار فى الارض الخصبة .

وبعد اعلان الاستقلال لم تحرك حكومة بورقيبة ساكنا بالنسبة لهذا الوضع الشاذ ، حتى اصبح الانتاج الزراعى ، الذى يسيطر بطريق

غير مباشر على كل الانتاج الاقتصادى للبلاد ، يكون المصدر الرئيسى لثروة اقلية ضئيلة ، من « الكولون » الاوروبيين ، واقلية أكثر من كبار الملاك التونسيين . بينما بقيت الاغلبيةالعظمى لجماهير الفلاحين خاضعة لاساليب بدائية ، فى ارض عجفاء ظامئة ، لايستطيعون ان ان يخرجوا منها مايسد الرمق .

لهذا نجد انفسنا فى تونس ، امام تقسيم وطنى ، وآخر اجتماعى للارض المنزرعة وكلا التقسيمان يعطى فكرة واضحة ، ومحددة جدا لمدى الاجحاف الاجتماعى الواقع على الشعب التونسى .

فتونس بلد صغير مساحته ١٥٢ الف كيلو متر مربع ، وتحاول الجهات الرسمية فى الحكومة التونسية ان تدخل فى روع الناس عن طريق احصاءاتها ، ان مساحة الارض المنزرعة ٩ مليون هكتار .

والحقيقة ان هذا التقدير خاطىء ، أو مضلل بمعنى اصح ، لانه يضيف مساحة ٤ مليون هكتار غابات ، ومليون هكتار أراضى بور تحت الاستصلاح ، الذى لم يبدأ فيها بعد وبذلك نجد أن الرقعة التى يمكن زراعتها بما فيها حتى تلك التى تروى بمياه الامطار وبوسائل اخرى غاية فى البدائية لايمكن ان تزيد عن ٤ مليون هكتار تنقسم على الوجه الاتى : —

ارض زراعية	٣٠٠٨٠٠٠٠٠	هكتار
براري	١٠٠٠٠٠٠	«
مشاتل	٨٣٤٠٠٠	«

وعندما يصل بنا البحث الى هذا الحد ، لابد لنا أن نتساءل على الفور ، عن كيفية تقسيم ملكية هذه الملايين الاربع من الهكتارات

ان الباحث ليصدم للوهلة الاولى .. فمهما حدث من جلاء عن تونس ، فانها تبقى محتلة بالملاك الاوروبيين الافراد ، وبشركات

الاستغلال العقارى الزراعى الاستعمارية .. ففى احصائية قدمتها السلطات الفرنسية حديثا الى المنظمة الزراعية العالمية ، التابعة للامم المتحدة ، فى عام ١٩٤٩/١٩٥٠ ، نجد أن ٣ آلاف « كولون » يملكون ٧٦٠ الف هكتار . منهم ٢٠٠٠ فرنسى ، يملكون ٧٠٠ الف هكتار والف ايطالى يملكون ٤٣ الف هكتار ، والباقية يملكهـــا مالطيون ، وروس بيض وجنسيات اخرى .

ولقد ورد فى هذه الاحصائية ايضا أن ٧٢٠٠ مالك تونسى أى ضعف عدد « الكولون » يملكون ٦٣٠ الف هكتار فقط ، اى اقل مما يملكه اقل من نصفهم من « الكولون » .

ونحب ان نذكر هنا ان هذا الاحصاء انصب ، كما صرح بذلك مقدموه ، على الاستغلال الزراعى ، ليس على الملكية الزراعية .. ولكن هذا لايضعف دلالة الاحصاء فى شيء ، لانه ينصب على الارض الصالحة للاستغلال ذات القيمة الانتاجية والاقتصاديةالاولى بالاعتبار. اما الاحصاءات الاخرى بما تحويه من فلوات وجبـــال وهضاب ، منسوبة ملكيتها لشعب تونس ، فلانحب أن نقع فريسة لها ..

وهكذا نجد البنيان الاجتماعى ، فى تونس ، من حيث الملكية ، يبدأ من القاعدة ، التى تضم ٥ الاف مالك تونسى صغير يملكون من هكتار الى خمسين ، ومتوسط الملكية بينهم ٢٠ هكتار للفرد . وحتى هؤلاء لم يحرموا من بعض الايطاليين يشاركونهم الملكيات الصغيرة . ويملكون مساحة لاتزيد عن ١٠ ٪ من الارض المنزرعة . ثم نصعد قليلا فى السلم الاجتماعى لنجد الملاك المتوسطين الذين يملكون ثلثى هذه الارض ، بمتوسط ٢٠٠ هكتار للمالك الواحد ، وغالبية هؤلاء الملاك من « الكولون » الافراد . ويتربع على عرش الملكية الاقطاعيـــة فى القمة الاقلية التى تملك ربع الارض المنزرعة ، وتستغلهـا باحـدث وسائل الاستغلال فى اكثر الظروف الانتاجية ملاءمة . وتملك كل واحدة منها فى المتوسط ٢٥٠٠ هكتار .

وتسيطر على الاراضى الصالحة للزراعـــة فى تونس الشركات الفرنسية الاتية :

١ ـ شركة ((صفاقس ـ جفصا)) ، وتملك ٢٧ الف هكتار ، فى شمال باقليم محرز جنوبى تونس .
٢ ـ شركة ((دومين انفيده)) تملك ٥٠ الف هكتار
٣ ـ شركة ((المزارع الفرنسية)) ، تملك ٢٧ الف هكتار
٤ ـ شركة ((الامونيوم امويبلييه تونيزين)) تملك ٢٨ الف هكتار

وتحاول المصـــادر الرسمية فى تونس ، أن تتمادى فى تزييف الحقائق ، فتقول ، ان نصف مليون فلاح تونسى يعملون فى اراضى تبلغ مساحتها من ٧ الى ٨ مليون هكتار ، بينما لايملك كبار الملاك الكولون ، الا مليون ونصف هكتار . وهذه هى الاشتراكية المثالية !! لكن الحقيقة التى تطمس هذا الادعاء هى إن ((الكولون)) لايملكون الا الارض الخصبة الصالحة للزراعة ، بينما هذه الـ ٧ أو ٨ مليون هكتار المدعى بها والمنسوبة الى الفلاحين عبـارة عن الارض الغير صالحة لاى نوع من انواع الاستغلال ، هى ارض بور وجبال ، بلاماء بعضها صخرى غير صالح للحرث ، هى جزء من الصحراء الكبرى كما شاهدتها بعينى .

وليست هنالك فى الحقيقة اى مقارنة ممكنة بين متوسط مستوى المعيشة والانتاج بين الغالبية العظمى لهؤلاء الفلاحين والاقلية الصغرى السادة ((الكولون)) .

ان الف بالكثير من السادة المستعمرين ((الكولون)) وكبار الملاك التونسيون ، يكونون ٢٪ من الملاك ، يستولون على ٣٥٪ مثلا من بذور التقاوى سنويا ، ويملكون مزارع الزيتون الحديثة ، واكثر من ١/٣ مزارع الكروم أى ١٣ الف هكتار ، من ٣٦ الف هكتار ، مجموع الاراضى المنزرعة كرما .

ولكن كبار الملاك الكولون ، يقولون مثلا : ليس من المهم أن يعرف الناس متوسط مساحة الملكية المستغلة . لكن المهم ان يعرفروا ماذا تنتج هذه الملكيات . أن الاف الهكتارات التى تملكها شركة « صفاقس جافصة » ، أو شركة «أنفيدة» ليستأكثرمن بعض الهكتارات تملكها فى مكان ملائم الى جوار مدينة تونس . هل نحن فقط الذين نملك المزارع الواسعة ؟ الا نعيش نحن ايدى عاملة اكبر واسعد ، لانها لاتملك ارضا من الفلاحين المتأخرين ، غير القادرين على تحسين وسائل زراعتهم البدائية الضحلة ، فى ظل الملاك الزراعيين العرب .

لكن هل ترك « الكولون » مزارعا ، أو أرضا للعرب . . غير الصحراء الكبرى . .

أن آلاف الهكتارات التى تملكها شركة « صفاقس » ، و «أنفيدا» تكون اعظم مزارع زيتون فى تونس ، وقد يكون فى العالم باسره . فعندها من ٩٠ الى ١٠٠ الف شجرة منتجة منزرعة فى احسن الظروف وتنتج المواد الاولية ، لمصانع الزيوت العظيمة الغاية فى الحداثة « اولترا موردن » .

والاراضى التى فى سهل الحبوب فى سوق الخميس ، وحقول الكروم والموالح ، فى التل البحرى ، ملكية أوروبية . أن هذه المنطقة تضم كل مزارع الكروم ، ومعظم مشاتل الفواكه ، والى جوار هذا يوجد « السنتر أوروبيين » ويضم المانوب وموورناجيا ، وبورج الامير وسيدى ثابت ، والجديدة ، وكاب بون وكلها خاضعة لملكية الكولون ثم « سنتر جرمباليا » ، ويضم الفندق الجديد ، ناكلسا ، سليمان أبن خالد ، ساحل بزرتين و «السنترتونيزين» ويشمل بورتو فارينو راف راف راس الجبل ، متلين ، منزل جميل العاليا .

وكل هذه القرى والدساكر ملكيات اوروبية .

ويأتى بعد هذا مساحة كبيرة لزراعة الحبوب ، حيث تغطى

المزارع الاوروبية مساحة كبيرة ، عبارة عن قطعة أرض واحـــدة ، تشمل اقليم مجاز ، وزغاوين ، وماتور ، وبجا ، وســـوق العرب ، وسوق الخميس ، حيث يوجد اكبر محصول للقمح في البلاد .

ومن فورنا ــ قصر ــ طير الى عروسة بوعرابا ، من جوبلا ، الى الون دى فاس .. من بير مشيرجا وعين العسكر الى موغران ــ سميدجا ، عند سفح جبل زاغان ، يكون هذا السهل التونسى مسبحة اوروبية طويلة ، تكاد لاتنقطع تقريبا .. ومجردا السفلى ، ملكيـــة اوروبية في ثلثيها تقريبا . وفى منطقة سوق الخميس ٤ شياخات تحت سيطرة الكولون .

وكذلك الاراضى الطمييه الطيبة فى كريب ، وكرالد ، وظفران . وفى جنوب دورسالة نفسها ، توجد جزر صغيرة ، لانها محاطـــة بملكيات صغيرة غير اوروبية من جميع الجهات ، مثل ســـيدى بوزيد ، بيفيلييه ــ بيشون ، اوسلتيا ، العـــلم صبيحا ، سبيتلا قصرين ، مكناسى ، زارزين .

والملاك الاوروبيون لايستولون على معظم الاراضى الطيبة فحسب بل ان كل مشاريع الكهرباء والآبار والطلمبـــات مخصصـــة لهم .. فتونس لاتعرف نظام الرى ، بمعناه المعروف عندنا حتى اليوم .

لكن هذا لايعنى انه ليس هنالك « ملاك كبار تونسيون » فهناك مثلا طبقة كانت خاضعة للمدرسة الفرنسية فى الماضى ، من أمثـــال رئيس الوزراء الاسبق ، طاهر بن عمار ، الذى يملك ٣ الاف هكتـــار قطعة واحدة فى المنطقة المروية فى مجردا السفلى وهناك اخرون غيره يعدون على الاصابع .

ومما هو جدير بالذكر ، ان فى تونس ١٠ الاف تراكتور تقريبا ، يملك « الكولون » منها ٧٥٪ .

اما عن الفلاحين الاجراء ، فحدث عنهم ولا حرج . وهم ينقسمون طوائف ، حسب علاقتهم بالمالك . فهنالك ٤٠ الف أجير يعمل باستمرار ١٢ شهرا في العام يتقاضى عنها اجرا حوالى ١٥ جنيه ١٥٠٠٠ فرنك فرنسى) . اى حوالى ١٢٥ قرشا فى الشهر . وهو اسعد الفلاحين حالا .

و١٥ الف خماسى ، اى مزارع بالخمس . وهذا العدد بالنسبة لرقعة الارض التى يعملون فيها يجعل الفلاح يعمل فى مساحة تتراوح بين ١٠ الى ١٥ هكتار هو وعائلته ، ومن يستعين به ليقتسم معه الخمس وحتى لو استطعنا أن نضيف الى هؤلاء ٢٥ ألف فلاح آخر ، يعملون باليومية التى لاتتجاوز ٥٠ فرنك فى اليوم (حوالى ٥ قروش) وفى فترات متقطعة لاتتعدى ٤ اشهر فى العام ..

وبقية الشعب ، بقية فلاحى تونس ، بلا عمل ولا رزق .

وهكذا يتسم الاستغلال الزراعى بالصفات الآتية :

١ ــ انه يركز الاستغلال الزراعى والاراضى والامكانيات بكافة أنواعها فى أيد قليلة أغلبها أجنبى عن البلاد .

٢ ــ انه ينمى زراعة المضاربة الراسمالية على حساب الانتاج الحيوى .

٣ ــ يجعل التوتر خطيرا ، بين التناقضات الطبقية ، عن طريق افلاس وافقار العامل الزراعى من ناحية وعدم التصنيع من ناحية اخرى .

وكذلك الصناعات الحرفية فى تونس ليست أسعد حالا من الزراعة ، فبعد ان تحطم الآلاف من الصناع الحرفيين ، لم تفعل الحكومة شيئا لتنمية شكل الانتاج الجديد الاقوى .. وهو انتاج المصانع . فلقد منعت السياسة الاستعمارية ، وتلتها السياسة البورقيبية نمو الصناعة المحلية . وكانت الاحتكارات الفرنسية ، التى

سوف تحل محلها الاحتكارات الامريكية ، تخرج المعادن من المناجم للتصدير فقط ، حتى لاتصنع فى الداخل .

والشركات الاجنبية تسيطر على كافة شركات التعدين التونسية التى يشرف عليها الوزير الصهيونى باروخ .

وهكذا وجدت مأساة البطالة المتفشية فى تونس . فلقد فر فلاحو تونس الى المدن فرارا من آلفاقة والحرمان ، الى المـــــدن التى لم تدعوهم ، وليست فى حاجـــة اليهم ، ولا تستطيع ان تقدم لهم ، ما استحال على الارض تقديمه لهم .. الطعام .

ان البطالة فى تونس ليست من النوع المعروف . ان العاطـل العادى كان عنده عمل فى وقت من الاوقات ، وفقده . لكن فى تونس تكون هذه الطائفة شريحة صغيرة من الغالبية الساحقة للمتعطلين . فالاغلبية الساحقة ليس عندها عمل ، ولم يكن لها فى يوم من الايام ، عمل أو حرفة . ان ثلث الراشدين من ابناء تونس يعيشون من الاعمال العارضة وهم متجمعون غالبا فى نواحى تونس ، ووسطها ، وفى جنوب البلاد ان من ٥٠ الى ٨٠٪ من الشعب بلا عمل .

ولا تقل الامية المنتشرة فى تونس فى ضخامتها عن البطالة فمن بين ٨٤٠ الف طفل فى سن المدارس عام ١٩٥٦ لم ير المدرسة حوالى ٦٢٠ الف ، اى حوالى ٧٥٪ . هـــذا عن التعليم الاولى ، فما بالنا بالتعليم الابتدائى او الثانوى .

وترتبط البطالة والامية بمستوى المعيشة المنخفض للشـــعب التونسى . ففى عام ١٩٥٣ كان متوسط دخل الفرد بالنسبة للثروة القومية ٤٦٫٥ جنيه فى العام ، اى أقل مما هو عليه فى فرنسا ٥٫٤ مرة . وهذا المتوسط بالطبع يفوق الدخل الحقيقى للغالبية العظمى للشعب ، لانه تبعا للاحصاءات الرسمية يحصـــــل ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ تونسى اى ٤/٥ مجموع الشعب ، على دخـــل سنوى يتراوح بين

١٦و٢٠ جنيه . ويسمى العالم الجغرافى التونسى صلاح الدين تلاتلى فى كتابه « تونس الجديدة » ، هذه الحالة بانها « كابوس قومى » لكن حتى هذا الرقم لايبين درجة الضنك الذى يعانيه الشعب فى المناطق الشاسعة خلال أيام القحط المتعاقبة ، فيحرث الجوع الارض ، مسببا وفاة الآلاف من سكان البيداء .

ويقوم الاستاذ تلاتلى بدراسة سبل التنمية التونسية المقبلة فيقول : **ان استقلالنا السياسى سيكون خرافة لو تابع سياسة الاعتماد الاقتصادى .. »**

ومفهوم هذا ، انه عندما تنال البلاد استقلالها ، فانه يصبح لزاما عليها كما فعلت مصر ، أن تكافح من اجل استقلالها الاقتصادى .

ولتحقيق هذا الهدف تحتاج تونس الى عدة خطوات لكى تقوى دور العناصر الوطنية فى اقتصاديات البلاد . وفى هذا الصدد يقول تلاتلى : « اننا لسنا مخيرين ، أن حياة البلاد نفسها تطالب بان نصفى الاستعمار .. اليوم فى تونس المستقلة ، يجب أن يمحى ظلم نزع ملكية الفلاحين وسكان الريف غير الشرعى .. »

ليس هذا فقط ، بل ان البلاد لفى مسيس الحاجة الى تأميم الثروات الطبيعية للبلاد التى تسيطر عليها ، وتستغلها الشركات الاجنبية .

كما يجب ان تتوسع تونس فى انشاء المشاريع الانتاجية . لكن هذه المشاريع تعوزها الاعتمادات ، مما يستدعى حصول تونس على معونة اجنبية .. وهنا تدخل تونس فى الدائرة المفرغة .

فلو طلبت تونس ، باتباعها للسياسة الموالية للغرب ، العون من فرنسا فانها لن تستطيع ان تقوم بتصفية السيطرة العقارية التى

« للكولون » والشركات العقاريةالفرنسية واعادة الارض التىاغتصبت للفلاحين . والا فسوف تمتنع فرنسا عن مد العون لتونس .

وعندما تطلب تونس العون من امريكا .. وقد طلبته فعـــلا ، يحدث ماهو واقع الان .

فان الدبلوماسية الامريكية التى اخـذت تنشـط فى تونس . وخاصة بعد رفض الدول الغربية مناقشة ، ضرب سناقية ســيدى يوسف بالقنابل فى مجلس الامن ، وعرض امـــريكا بالوساطة . ثم حضور مورفى المبعوث الامريكى الى تونس ، واجرائه محادثات مــع حكامها أوضحت بما لايدع مجالا للشك رغبة امريكا فى الحصول على اكبر مكاسب ممكنة من الازمة التونسية الفرنسية كمـا سـبق أن أوضحنا . وبهذا تقوم الولايات المتحــــدة الامريكية ايضا بهجوم اقتصادى على تونس .

ولقد تسربت فعلا الى تونس احتكارات امريكيـــة ، فى الفترة الاخيرة . فشركة التنقيب التونسية الامريكية أسست فى اخـــر ١٩٥٧ . وشركة كونراد للنفط تنوى التنقيب فى ٢٠ الف كيلو متر مربع فى الجنوب للبحث عن البترول ..

وبعثة المعونة الامريكية التى رأسها ((الرير ادميرال ستراوس)) مضى لها عام حتى الان فى تونس . وأصبح واضحا أن هذه ((المعونة)) لن تنمى اقتصادياتها بل ستمهد الطريق للســـيطرة الاستعمارية الامريكية على البلاد .

ولقد أوضحت جريدة ((الكومبا)) الفرنسية الرجعية هذا بجلاء فى عددها الصادر فى ٢ نوفمبر ١٩٥٧ فقالت : ((مدفوعة على وجه الخصوص باسباب استراتيجية تبدى الولايات المتحدة الامريكيـــة اهتماما زائدا بتونس ..))

وهكذا تسد سياسة بورقيبه الموالية للغرب ، والمعتمدة على امريكا وفرنسا ، كل بوارق الامل فى امكان الشعب التونسى التخلص من حالة البؤس التى هو فيها ، ومن الاستيقاظ من « الكابوس القومى » الذى يقلق باله .

ان الطريق الوحيد ، لانقاذ شعب تونس من المجاعة ، والبطالة والفاقة التى تحدث عنها الاستاذ تلاتلى ، هو فى أن يسلك سبيل البلدان العربية المتحررة .. هو ان يعتنق مبادىء القومية العربية التى هى قوميته .. هو ان يرغم حكومته على التضامن مع بقية الشعوب العربية فى اتباع سياسة الحياد الايجابى والتعايش السلمى .. هو فى ان يرغم حكومته ، على توثيق عرى الصداقة والتضامن ، وتبادل العون مع كتلة الدول الاسيوية الافريقية .

لكن للحبيب بورقيبه سياسة أخرى ..

سياسة الانحياز للغرب

ان الذى يتتبع السياسة الخارجية التى تسير عليها تونس ، منذ اعلان استقلالها ، لايستطيع الا ان يصدم بسلسلة التخبطات ، التى لاتضر فقط بقضية عرب شمال افريقيا ، بل تضر قبل أى شىء آخر بالشعب التونسى نفسه .. فانه لمن المعلوم ، ان تونس منخرطة رسميا فى المعسكرالغربى ، وان الرئيس بورقيبة ، يوافق تماما على كل اتجاهات العالم الملقب بانه العالم الحر ..

لكن هذا الانحياز الرسمى للغرب كثيرا ماتنال منه الاحداث على أى حال ، فلا يستطيع ان يؤتى ثماره ، فكثيرا مايتناقض هذا الانحياز مع التصريحات الوطنية التى تحشو بها الحكومة أقوالها ، حتى بدا للجماهير التونسية نفسها ، أن هذا الانحياز غير مفهوم ، وغير مفيد بل وخطير أيضا ..

ولقد كان وصول ديجول للحكم ، هو القشة التى تمسك بهـا الفريق . فصرح بورقيبة فى النيوز كرونيكل بقوله : **((اذا لم يوقف الجنرال ديجول الحرب فى الجزائر فى بحر ثلاث شهور ، فسنواجه بنكبة ، وكل شمال افريقيا سيتارجح ، وستقودنا فرنسا نحن والعالم الحر الى الهاوية ..))**

هذا التصريح يفيد فى تفسير السياسة الخارجية التونسية ، التى سبق ان اوضحناها بالتفصيل ، الى جوار انه يعبر عن التكتيك المعتاد القائم على قرع جرس الخطر ، لحمل الدول الغربية على عمل شىء قبل وقوع الطامة التى ستأخذ الجميع فى ثناياها .. جميع الطغاة واذنابهم .. الى جوار انها تومىء الى حقائق معينة للوضع فى شمال افريقيا .. تتلخص فى :

١ ـ ان السياسة التونسية لاتستطيع ان تهمل المشكلة الجزائرية التى لاتزال تستأثر باهتمام كل شعوب العرب .. وخاصـة شعوب شمال افريقيا ، حتى بعد اتفاقية الجـلاء التونسية الفرنسية ..

٢ ـ ان هذه السياسة ، رغم انها قائمة على الذيلية للغرب ، الا انها باتت تخشى تطورات مشاعر الجماهير الشعبية .

٣ ـ أنه تحت ضغط الاحـداث لابد من حدوث تغييرات والا فالحكومة لن تستطيع الصمود أمام قوة الشعوب .

ولا بد لنا فى هذا المجال من العودة قليلا الى الوراء .. فقـد ولد الاتفاق الذى أبرم أخيرا بين الحكومتين التونسية والفرنسية ، بين الاستعماريين الفرنسيين ، وبقية العالم الاستعمارى الامل فى انه من الان فصاعدا سوف تتفسخ جبهة شمال أفريقيـا ، وانه ستطلق أيديهم « لتقويم النفوس » فى الجزائر ، واعتبرت هذه الاتفاقية كتعبير عن قمة براعة الجنرال ديجول ، وكدلالة على حلوله السحرية التى

ينفرد بها ، ولا يجيدها سواه .. ذلك لان قرار الحكومة الفرنسية بالموافقة على جلاء قواتها المعسكرة خارج بنزرت كان قد اتخذ قبل مؤتمر تونس الاخير ، والذى كان متوقعا أن تبرز فيه القرارات التى اتخذت فى مؤتمر طنجة من قبل .. وتشتمل هذه القرارات أساسا على :

١ ـ اقامة حكومة جزائرية وطنية .

٢ ـ اقامة جمعية استشارية لشمال افريقيا

٣ ـ عدم الارتباط مع طرف آخر مادامت الجزائر ليست مستقلة واتحاد شمال افريقيا لم يقم بعد ..

ونضيف أيضا ان الاتفاق التونسى ، قد اتى بعد تصريح ديجول عن « الانصاف » فى الجزائر ، ذلك التصريح الذى وصف بأنه اغلق الباب على كل حل سلمى لقضية الجزائر ، ويؤدى الى استمرار الحرب . ومن ناحية اخرى كان واضحا أن تصرف الحكومةالفرنسية الخاص بتونس ، ولو ادخل الارتياح على نفوس الشعب ، بالنسبة للجلاء ، فانه لم يكن عند واضعيه الا مناورة الغرض منها نسف مؤتمر تونس ..

وتكتيك التفرقة هذا ليس جديدا ، كما سبق أن أوضحنا : فلقد اتبعه الاستعماريون فى كل الازمات . ومنذ بداية الحرب الجزائرية بالذات والاستعمار يعمل على عزل تونس ومراكش عن معركة الجزائر .. يعمل على تحييد هذين البلدين على الاقل بالنسبة لهذه الحرب ..

ومنذ تولى ديجول السلطة ، وتكتيك عزل تونس ومراكش عن الجزائر ،عزل الشعب فى كلا البلدين ، يزداد بروزا . وكان الاتفاق

التونسي الفرنسي تطبيق لهذا التكتيك ، ولتقوية بورقيبه وتأييده امام الشعب .

كما ان هذا القرار موجه لعزل حركة التحرر الوطني الجزائرى في ميدان شمال افريقيا ، وميدان فرنسا .

كما قصد بهذا القرار تدعيم ترشيح ديجول في الاستفتاء بأن يدخل في روع الراى العام أن الحكومة الفرنسية شارعة في طريق بناء في شمال افريقيا ، وان فترة الاربع اشهر التى ظهر فيها هـذا الاتفاق ، لتؤكد مرامي هذه المناورة ، وذلك اذا ما وضعنا في الاعتبار انه في أثناء هذه الفترة عقدت دورة الجمعية العامة للامم المتحـدة واجرى الاستفتاء في فرنسا ..

ومنذ توقيع الاتفاق في ١٧ يونيو ١٩٥٨ والحكومة التونسية ميالة لتأييد ديجول . ففى ٢٣ يونيو الماضي صرح بورقيبه للمندوب الخاص لوكالة الانباء الفرنسية ((**ان الجنرال ديجول هـو من حظ فرنسا ، ومن حظنا أيضا ..**)) وأضاف قائلا : ((**رغم الظروف التى وصل فيها الجنرال ديجول للحكم ، والتى هو ليس مسئولا عنهـا فانني احتفظت بثقة في الرجل بسبب تحكمه وشجاعته .**))

كما قام السفير التونسي في باريس ، بتعظيم ديجول بمجرد عودته الى العاصمة الفرنسية من تونس ، وحيا « عودة الديجولية »

ولقد ادلى بورقيبه بهذه التصريحات في الوقت الذى يمارس فيه ديجول الابادة باعنف صورها في الجزائر ..

ان اتفاق ١٧ يونيو هذا ، لم يكن ليقرر الا ليمكن ديجـول الذى استمر في رفض الاهداف الوطنية للشعب الجزائرى ، من القضاء على الثورة . ان موافقة ديجول على الجلاء ، لاتعنى أنه قام بهذا التصرف بمحض ارادته ، لكن خضوعا من الاستعمار لظروف خاصة ، تجعل

من بقاء هذه القوات استنزافا لامكانيات لم يعد لبقائها فائدة في ظل وجود الحبيب بورقيبه ويمكن ان تكون اجدى فى الجزائر .

ومشكلة الجزائر تحدد بالنسبة للشعب التونسي كل شيء ومهما كانت المكاسب التى ينتزعها من المستعمرين ، فليس هنالك أى شيء يمكن أن يحطم التضامن الذى ظهر فى طنجة بين شعوب شمال افريقيا .

فمؤتمر طنجة بالنسبة للشعب العربى فى شمال افريقيا ليس عملية سطحية تكتيكية أو طريقة بسيطة للضغط على الاعداء لكنه تحقيق لنضال تاريخى حقيقى فالوحدة التى تأكدت فى هذا المؤتمر لاتبزغ فقط من النطاق العاطفى لماض تاريخى ، لكن فى نطاق الآمال المشتركة كضرورة حيوية للنمو المتحرر لكل شمال افريقيا .

فبالرغم من الخطط والاحصاءات الاستراتيجية الاستعمارية ، ورغم الاتفاق الفرنسى التونسى ، لم يكن فى المستطاع جعل مؤتمر تونس ، الا امتدادا لمؤتمر طنجة ، هذا المؤتمر الذى عقد تحت شعار تضامن شمال افريقيا . وهكذا عقد مؤتمر تونس ، الذى وان اغفل مع الاسف الشديد ، الحديث عن حكومة الجـزائر ، الا انه رفض رفضا باتا ، نظرية « الانصاف » التى ينادى بها ديجول ويقول فى ذلك « **مخلصين للمبادىء والقرارات التى اتخذها فى مؤتمر طنجة يطالب المؤتمر على رؤوس الاشهاد ، بحق الشعب الجزائرى الـذى لاينازع فى السيادة والاستقلال . ذلك هو الشرط الوحيد لحل الصراع الفرنسى الجزائرى** »

وقد ورد فى البيان النهائى لمؤتمر تونس « بعد أن قمنا بدراسة الموقف العالمى » قرر المؤتمر القيام بعمل جماعى فى الحقل الدبلوماسى فى سبيل التوصل لتسوية سلمية للمشكلة الجزائرية .. »

لكن الا يحق لنا التساؤل ، لمعرفتنا باتجاهات السياسة الخارجية

التونسية ، عما سيكون عليه اتجاه هذا « العمل الجماعى فى الحقل الدبيلوماسى »؟

قمما لاشك فيه ان الاتجاه الواضح السائد فى الحكومة التونسية الان يقوم على انجاز هذا العمل فى نطاق « العالم الحر » وان ينطبع بالاتجاه المنحاز الى الغرب ، الذى هو قاعدة السياسة التونسية نفسها . لانه فى نفس الوقت الذى يكرر فيه ديجول تصريحاته المعادية لامال الشعب الجزائرى ، تبدو الحكومة التونسية ، معتمدة عليه لكى يحل حلا شافيا مشكلة الجزائر . بل وفى نفس الوقت الذى استنكر فيه مؤتمر طنجة ، التضامن القائم بين الحكومة الامريكية والحكومة الفرنسية ، فيما يتعلق بقضية الجزائر ، وفى الوقت الذى رحب فيه دالاس بسياسة « الانصاف » التى ينادى بها ديجول ، تستمر الحكومة التونسية فى نشر الاعتقاد بان الولايات المتحدة الامريكية ستتدخل لصالح الشعب الجزائرى .

أفلا يصبح من حقنا بعد كل هذا ان نتساءل الى متى ستظل حكومة بورقيبه فى هذا الخط الموالى للغرب والقائم على خرافة ان دالاس او ديجول سيحلون مشكلة الجزائر ؟

انه لمن المعروف ان جبهة التحرر الوطنى الجزائرى غير ميالة الى التمسك بمثل هذا الاتجاه فى نفس الوقت الذى يظهر فيه فى مراكش اتجاه قوى يميل الى « عدم الاعتماد » على المعسكر الغربى فى حل مشكلة الجزائر .

ان المنطق الكبير الذى يستخدمه بورقيبه من حين لاخر لتسويغ الاستمرار فى السياسة الموالية للغرب ، من أن هذه السياسة ستؤدى الى نتائج ايجابية . هذا المنطق الذى دفع به فى المؤتمر الطبى العربى لكى يقول : « **ان لى سايستى واسلوبى .. واذا كان العالم العربى قد استرجع تونس بفضل اسلوبى هذا ، فان الامر لم**

يكن ممكنا الا بفضل سياسة متارجحة ، دفعتنى احيانا الى الاعتماد على الولايات المتحدة ، واحيانا على بريطانيا العظمى ، وان اخلق احيانا اخرى الجو السياسى الملائم للخلافات بين هاتين القوتين وحليفتهما فرنسا . »

ان الحبيب بورقيبة لايلعب على التناقضات بين الدول الاستعمارية فهو بأسلوبه البهلوانى اصبح العوبة فى يد القوى الاستعمارية واساسا فى يد الولايات المتحدة قائدة المعسكر الاستعمارى وخبرات السنين الاخيرة اطلعت الجماهير التونسية بوضـــوح على أخطار الارتباط بالغرب الاستعمارى فى الحقل السياسى والاقتصادى على السواء .

ان قصف ساقية سيدى يوسف مثلا ، لم تكشف فقط عن الخطر الذى تهدد به القوات الفرنسية الموجودة فى الجزائر الاستقلال التونسى .. بل انها كشفت ايضا الظروف السيئة للسياسة المنحازة للغرب . اذ ان امريكا التى كان عليها ان تساعد بورقيبه ظهرت فى الحقيقة كقوة تقف الى جوار المستعمرين الفرنسيين كما يشـــاء حلف الاطلنطى . هذا الى جوار أنها لم تستعمل سلطانها فى الامم المتحدة لكى تحل قضية الجزائر فقط ، بل ذهبت الى حد تزويد الجيش الفرنسى بمعونة مالية ، واسلحة حربية .

ان طائرات د ٢٦٠ التى قصفت ساقية سيدى يوسف وراماداا بعد ذلك كانت امريكية . وعلى العكس بقيت تونس بلا سلاح فى مواجهة قوى العدوان لان حكـــومتها اكتفت وقنعت بالاجراءات الرمزية الانجلو امريكية لكى ترفض البحث فى مكان اخر عن الاسلحة المطلوبة للدفاع عن تونس ، ولكى ترفض العون المصرى وهكذا دوى الشعار « الجلاء بالسلاح » فى مظاهرات الشعب التونسى كنقد موجه لسياسة الحكومة .

لقد كانت الآحداث من الجسامة بدرجة بعثت على التفكير .

والصرخات التى كانت تنطلق من الاحرار منذ زمان ، اكدتها التجربة تجربة تونس ، وتجارب البلدان العربية الاخرى . وفرضت التجربة نفسها على كثير من النفوس الواعية ، كما فرضت نفسها على الجماهير المريضة حتى اضطرت جريدة « الاكسيون » لسان حال حزب بورقيبة التى تصدر باللغة الفرنسية أن تقول ((**أن تعديل سياستنا يفرض نفسه سواء اكان هذا مؤلما أو لا .. لقد علمتنا الحقائق المرة ان التعلق بسياسة الغرب لانجنى منه الا الحرمان والاهانة . ومن وقت لاخر . ومن بين حركات المن والتفضل تهطل القنابل .. انها لضرورة قومية ان نمد صداقتنا الى الشرق كما هى ممدودة الى الغرب . »)**

اغلق بورقيبه جريدته هذه فيما بعد .. !!

ان الدرس الذى تلقته تونس بعد حادثة ساقية سيدى يوسف لم تستفد منه الحكومة التونسية . فالقضية التونسية التى عرضت على الامم المتحدة تركت تنزلق بسهولة الى طريق التسكع بين « مكاتب » وزارات الخارجية الانجلو امريكية . وبينما طالت المحادثات حتى يخف أثر مأساة ساقية سيدي يوسف ، بدت هذه « المكاتب » على حقيقتها كوسيلة لانقاذ العدوان الاستعمارى الفرنسى على تونس ، ولتمكين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى من ان تتخفيا مختفيتين حقائق موقفهما أثناء جلسات الامم المتحدة التى كان ولابد ان تتطرق الى مشكلة الجزائر .

وفى الوقت الذى كان الشعب التونسى يطالب فيه بالاسلحة لكى يدافع عن نفسه وعن ارضه رفضت امريكا باستمرار تزويده بهذا السلاح ، بل نصحت الحكومة التونسية بالاعتدال فى انتظارتولى ديجول السلطة .. ولم تكن هذه الحكومة فى حاجة الى نصح .. فعلت امريكا هذا فى نفس الوقت الذى كانت تغرق شمعون فيه بالسلاح اللازم لكى ينكل بالشعب اللبنانى المكافح من اجل سياسة وطنية مستقلة . ولم يفت الشعب التونسى من جانبه ملاحظة

هذه المفارقة التي مكنته من أن يرى أكثر وضوحا الدور السياسي الحقيقي للولايات المتحدة في كل مكان لخدمة الرجعية والاستعمار ..

ولم تكن التجربة التونسية في الميدان الاقتصادي أوفر حظا .. ففي صبيحة الاستقلال كان الشعب التونسي يحس بما هو في حاجة اليه ليحسن وضعه الاقتصادي ويرفع مستواه الاجتماعي والثقافي. وقد ترك لهم الاستعمار الفرنسي تركة ، عبارة عن اقتصاد منهار يجب اعادة بنائه من جذوره ، لان الاحتكاريون الفرنسيون عملوا على تخريب النمو الاقتصادي التونسي وتجهيد رؤوس الاموال الموجهة الى تونس عقابا للشعب التونسي على تضامنه مع الجزائر أو هكذا قالوا ..

ولكن الحكومة التونسية أخذت تهدىء ثورة الشعب باثارتها ضجة كبيرة حول المعونة الامريكية ، وعقد اتفاقات رسمية معها . لكن المعونة الامريكية اقتصرت حتى الان على ارسال فائض منتجاتها الزراعية وحاصلات أولية ، بينما تونس وفيها ٤٠٠,٠٠٠ عاطل تقريبا في مسيس الحاجة الى اصلاح زراعتها واقامة سياسة تصنيعية . ولم يغفل الشعب التونسي أيضا عن المقارنة بين هذه المساعدة وتلك التي يقدمها الاتحاد السوفييتي الى بلدان آسيا وافريقيا والجمهورية العربية المتحدة على وجه الخصوص . لم يفت الشعب التونسي أن يلاحظ كيف حرمته السياسة المنحازة الى الغرب، من مساعدة اقتصادية جدية ، هو في حاجة اليها ، وقد كتبت جريدة « الاكسيون » السالفة الذكر في عددها الصادر في ٢١ ابريل سنة ١٩٥٨ : ((**ان ما نتمناه أن نكون أصدقاء الامريكان دون أن نضطر أن نقطع علاقاتنا بروسيا في مقابل هذا . ان ما نريده هو أن نستطيع الاعتراف بالصين الشعبية ، وأن نقيم علاقات ودية مع بلدان الشرق دون أن نجرح احساسات الامريكان . هذا هو مانحن في حاجة اليه .. انها سياسة الصداقة ، التعاون ، والمساعدة المشتركة .. مع كل الذين يحترمون سيادتنا مهما كان نظامهم ، والاهداف التي تنسب اليهم**))

أغلق بورقيبة هذه الجريدة فيما بعد

لكن الحكومة التونسية تعتبر السير فى هذا الطريق « نكبة » ، ولهذا ، وبفضل الاتفاقية التونسية الفرنسية الاخيرة ، وعلى حطام كل التجارب الاخيرة ، يتمادى بورقيبة فى «الدردشة الغربية» ويريد أن يوقع فى حبائل ما يسميه بالعالم الحر .. كل شمال أفريقيا تحت ادعاء أن ديجول يستطيع أن يجد حلا طيبا للمشكلة الجزائرية ، وان أمريكا ستقوم بالضغط عند الحاجة للوصول الى هذا الحل .

ولسنا فى حاجة الى كبير ذكاء لكى نعلم أن « ديجول » ليس «أمل» الشعب الفرنسى ، ولا « أمل » شـعوب شمال أفريقيا . انه أمل البرجوازية الفرنسية أكثر من أى شىء آخر ، التى تملك المصالح الكبيرة فى الجزائر وتحلم بثروات خيالية فى الصحراء الكبرى وتسعى الى الدكتاتورية علها تستطيع مجابهة التناقضات المعقدة التى تحيط بها من كل جانب . لقد وصل ديجول الى السلطة بواسطة المستعمرين المتطرفين فى الجزائر ..

أما عن الزعم بأن الولايات المتحدة قد تغير سياستها وتقف بجوار الشعب الجزائرى ، الى جوار شمال أفريقيا ، فنستطيع أن نقول انه افتراض مستحيل .. وهذا واضح جدا فيما تكتبه الصحافة ، وتقوله الاذاعة الاستعمارية نفسها .

فلقد قال باتريك سميث مراسل الاذاعة البريطانية

« انى أعتقد أن وجهة النظر الامريكية والانجليزية ، انما هى انقاذ ما يمكن انقاذه من حلف شمال الاطلنطى . ومن الصعب التوفيق بين هذا وآمال شعب الجزائر فى التحرر من فرنسا » .

وقال بوريس كيدل ، المحرر بالنيوزكرونيكل اللندنية ، **« اننى أجد من الصعب جدا أن تستطيع الولايات المتحدة ، أو بريطانيا ممارسة**

اى ضغط على فرنسا فى هذه الاونة . ان فرنسا الآن ، وكل جيشها مركز فى شمال افريقيا ، لا تمثل نقطة ارتكاز هامة فى دفاعنا المشترك لكن كل خطوط مواصلاتنا ، وخطوط تموينا ، تخترق فرنسا ، وعالمنا الغربى تسيطر عليه المعركة القائمة بين الشرق والغرب . »

وهكذا تلعب انجلترا وأمريكا بورقة ديجول ، ورقة « السلطة الصارمة » ، فى فرنسا لانقاذ حلف الاطلنطى . انهم فى حاجة الى فرنسا فى خدمتهم للاستمرار فى السياسة الاطلنطية ، سياسة الحرب واستعباد الشعوب ..

عندما تكلم بورقيبة فى مؤتمر الاطباء العرب قال : « **اننا عندنا الارادة الكاملة لتحرير المغرب العربى ، حتى نكون أمة موحدة ، وعندئذ سنفكر فى الشرق وفى العروبة .. »**

واننا نعتقد أنه كان أولى به أن يقلب الوضع ، لانه يجب على عرب شمال أفريقيا من الآن أن يبحثوا عن حلفائهم المخلصين ، حتى يحققوا الهدف المشترك ، لكل شمال أفريقيا ، وكل العرب .. تحرير المغرب العربى ..

ان الطريق واضح ، أمام الشعب التونسى ، وكل القوى الشريفة فى تونس ...

انها سياسة أخرى يجب اتباعها ..
سياسة لا تنحاز ولا تخضع الى الغرب ..
سياسة تقوم على التضامن الطبيعى لشعوب شمال أفريقيا .
سياسة تعتمد على تضامن الشعب العربى .
سياسة تقوم على علاقات وطيدة مع الدول العربية المتحررة .
سياسة تقف مع وحدة العرب وتستظل براية القومية العربية .
سياسة تعتمد على تضامن شعوب آسيا وافريقيا .

سياسة ترفض العلاقات الدوليــة ذات الاتجاه الواحد ، وتؤمن بالتعايش السلمي والحياد الايجابي .

سياسة تقوم على تدعيم السلام والتحرر ..

سياسة تقوم للعمل على رفع مستوى الشعب المادى والمعنوى .

سياسة تنبثق من ضمير الانسان .

الفصل الخامس

حتما سينتصر الشعب العربي

فى يوم من أيام شهر مايو عام ١٩٥٦ ، كنت اجلس مع الحبيب بورقيبة فى مكتبه ، بديوان الرئاسة ، فى تونس .. وكان فخامته يتحدث عن الغرب ، وعن ضرورة وجدوى التعاون مع الغرب بالنسبة لتونس ، « الصغيرة » و « الفقيرة » على حد قوله ..

وقلت للحبيب بورقيبة فى ذلك اليوم ، « الا ترون فخامتكم ، أنه فى استطاعة تونس ، أن تجد العون والحماية ، اللازمة لها ، بتعاونها وتضامنها مع شقيقاتها العربية ، ومع مصر بالذات .. ؟ »

فاذا بالحبيب ، يهيج ويثور على الدول العربية كلها ، وينطلق فى التحديث عنها ، مستصغرا شأنها ، مقللا من قواها وامكانياتها ، وقدرتها على التعاون ، والتضامن ، والتكافل .

وذكرنى كلام بورقيبة هذا ، بكلام مشابه ، كان يقوله نورى السعيد ، وهو يبرر ذيليته للغرب ، ولم يستطع لسانى أن يمسك ، بهذه المقارنة التى دارت فى خلدى ، وفكرى ، فاذا بلسانى يسبق فكرى ، ويقول للرئيس التونسى ، « ان نورى السعيد ، يقول نفس الكلام ، الذى تقوله فخامتكم .. »

وأمسكت .. أمسكت لاننى خشيت أن اكون ، قد أهنت

الرجل الجالس أمامي .. لكنه على العكس ابتسم ، ونظر الى فخورا ، وهو يقول : ((**ان دولة نورى باشا ، من أذكى رجالات العرب وأكثرهم عبقرية** ...))

ومرت السنين على هذا الحديث ، وكان الحبيب بورقيبة يسير على نفس الطريق الذى سار عليه نورى السعيد من قبل . ولم تكن الجمهورية العربية المتحدة ، ولا الرئيس عبد الناصر ، فى غفلة عن الطريق الذى يسير عليه بورقيبة ، لكن لم ترد كلمة واحدة ، فى صحيفة أو جريدة أو اذاعة مصرية ، أو سورية ، تتناول بورقيبة ، فى سياسته هذه ، بمدح أو قدح .. فالجمهورية العربية المتحدة ، لاتتدخل فى الشئون الداخلية للبلدان العربية الاخرى والجمهورية العربية المتحدة ، لاتحرك ساكنا ، الا اذا تهددت مصالح القومية العربية بالخطر ، والا اذا هدد حركة التحرر الوطنى للشعوب العربية خطر يوطد ركائز الاستعمار فى أرض العرب ..

كانت هذه هى سياسة الجمهورية العربية المتحدة ..

وكانت تلك هى سياسة الحبيب بورقيبة ..

وكان العالم يعرف التناقض الاساسى الموجود بين السياستين . فلقد كتب ، المعلق الالمانى ، بيرث بازنسكى ، فى جريدة ((دى فلت)) يقول : ((**ان هنالك اتجاهين فى العالم العربى فى الوقت الحاضر . . الناصرية .. والبورقيبية .. ويهدف الاتجاه الاول الى لم شمل العرب ، تحت لواء القومية العربية ، بينما يرمى الاتجاه الثانى الى التعاون مع الغرب ..**))

بل انه ، عندما اعلن بورقيبة رغبته فى الانضمام الى الجامعة العربية ، واعلنت الدوائر المسئولة فى واشنطن ، عن ترحيبها بهذا الانضمام ، ((لانه اجراء قد يؤدى الى التقليل من نفوذ الجمهورية العربية المتحدة على الدول العربية الاخرى ، خاصة بعد ثورة

لعراق .. » رحبنا نحن أيضا بهذا الانضمام ، رغم وعينا بالاهداف الحقيقية ، الباعثة الى اتخاذ مثل هذا القرار . وهى المحافظة على التوازن الاستعماري داخل الجامعة العربية ، الذى أختل كنتيجة لثورة شعب العراق ، وقيام حكومة ثورية متحررة هناك .. الامر الذى أكده الصادق المقدم ، وزير خارجية تونس ، فى مؤتمره الصحفى الذى عقده ، اثر ازمة الجامعة العربية . فلقد قال : « **ان تونس دخلت الجامعة العربية ، لانها وجدت أن الامور قد تغيرت داخل هذه المنظمة بعد الثورة العراقية التى قامت فى يوليو الماضى ..** »

الا أنه بالرغم من كل هذا ، الذى كنا نعرفه ، وكنا واثقين منه جيدا ، فان الجمهورية المصرية ، ثم الجمهورية العربية المتحدة ، لم تدخر وسعا ، فى تأييد تونس ، والحكومة التونسية ، ولم تتردد فى الوقوف بجانبها فى جميع الازمات ، التى مرت بها تونس منذ أعلن استقلالها ، بل ومنذ أن كانت تحت الحماية الفرنسية ، بل أن بورقيبة نفسه ، اعترف بذلك فى تصريح له ، أدلى به فى مارس ١٩٥٧ ، قال فيه : « **اننا نعلم ، ونعرف ونلمس ، كلنا ، أيادى مصر البيضاء ، لا على تونس فحسب ، بل على كل الشعوب العربية التى ابتليت بالاستعمار ، وعلى الشعوب الاسلامية ، وعلى كل الشعوب المناضلة من أجل الكرامة الانسانية ..** »

ان القاهرة ، طالما ضحت ، بمصالح مادية ، وأدبية للاخذ بمن لجا اليها ، ومهدت له السبيل واخذت بيده . واننى أتذكر لما كنت فى مصر لاجئا سياسيا ، ومكافحا ! ، ومجاهدا ! ! لم اشعر حتى مجرد شعور ، بانه يجب على أن أقف أو أخفف .. بل فتح أمامى المجال للدفاع عن بلادى ، وبث الدعاية لبلادى ، وهذا كله يعرفه التونسيون ويعرفه العرب .. »

وفى مارس ١٩٥٦ ، عندما أقامت تونس الاحتفالات بعيد استقلالها ، أوفدت مصر السيدان حسين الشافعى ، وأنور السادات

للاشتراك فى هذه الاحتفالات . مما كان له كبير الاثر فى تأييد شخص بورقيبة وسياسته ، فى الوقت الذى كانت المعركة فيه على أشدها بينه وبين صالح بن يوسف . بل لقد أدلى السيد حسين الشافعى بخطاب حين ذاك ، تضمن التأييد الكامل لشخص بورقيبة وسياسته، ووجهت اليه الدعوة رسميا ، باسم الرئيس عبد الناصر لزيارة مصر .. مما نقوم دليلا على أن حكومة القاهرة لم تدخر وسعا منذ الوهلة الاولى ، فى تأييد بورقيبة وحكومته .

وفى ٢٥ يوليو ١٩٥٧ ، اعلنت الجمهورية التونسية .. وكانت حكومة القاهرة فى هذه المناسبة أيضا ، أول دولة اعترفت بالجمهورية التونسية . بالرغم من أن هذه المبادرة كانت تحرج بعض الدوائر !!! وتغضب البعض الآخر . ! وكانت مصر باعلانها هذا انما تؤيد بورقيبة الذى قام بهذه الخطوة كزعيم لتونس .. حتى انه صرح حينئذ .. **« ان اعتراف مصر عجل باعتراف الحكومة الفرنسية ، التى كانت تنوى مساومتنا ، على هذا الاعتراف .. »**

هذا الى جوار ان اعتراف حكومة القاهرة ، كان له أثره الكبير بين صفوف الشعب التونسى .

وعندما تأزمت الحالة الاقتصادية فى تونس ، ونقضت الاتفاقية الاقتصادية التونسية الفرنسية . واخذ هذا القطر العربى الشقيق ، يواجه أزمة حادة ، تسارعت مصر كعادتها دائما الى الشقيقة تونس، وارسلت وزير تجارتها فى ذلك الوقت السيد محمد أبو نصير ، لعقد اتفاقية بين مصر وتونس . هذا فى نفس الوقت الذى أحجمت فيه الدول الكبرى والصغرى ، والدول الغربية بالذات ، التى يفاخر « فخامة » بورقيبة ، بنسبته اليها ، عن معاونة تونس ، لانها كانت تخشى اغضاب فرنسا .. ولم تكن هذه الاتفاقية هى الوحيدة ، بل أخذت الاتفاقات تتوالى فى النواحى الثقافية والفنية الاخرى ..

وعندما ساءت الاحوال بين تونس وفرنسا ، وتعرضت تونس لاعتداءات الاستعمار الفرنسي الغادرة ، ووجدت نفسها محتاجة للسلاح ، ورفض الغرب مدها به ارضاء لفرنسا أيضا .. سارعت حكومة القاهرة وعرضت على بورقيبة ، ارسال أى كمية يطلبها من السلاح . وبالفعل ارسلت هدية الاسلحة المعروفة فى ٢٣ سبتمبر ١٩٥٧ الى الجيش التونسى ..

ولقد علق بورقيبة ، على هذه الهدية ، فى حديث اذاعى ألقاه فى ديسمبر ١٩٥٧ ، فقال : ((**ان هذه الهدية تمثل هدية العربى لاخيه العربى ، يتجسم فيها ايثار العربى وكرمه ، حيث يهدى لاخيه احسن ماعنده ، واننى لاقدم اليوم من هذا المذياع نيابة عن الشعب التونسى التشكرات الاخوية الخالصة للحكومة المصرية على هذه اليد التى مدتها لتونس فى أحرج الظروف ، وعلى موقفها الذى كان له الاثر الكبير ، فى العالم اجمع ، وفى الشعب التونسى على الاخص ، ذلك الموقف الذى لايقل عن موقفها الماضى فى سبقها بالاعتراف بالنظام الجمهورى فى تونس ..**))

.. كل هذه المواقف مجتمعة ، تبين تمام التبيان صدق النية ، وخالص الاخاء ، وكامل التأييد لتونس . وليس فيها مايمكن أن يقوم دليلا من قريب أوبعيد على نية التدخل فى شئونها الداخلية، التى يتذرع بها الحبيب بورقيبة ، للقيام بمؤامراته ، ومناوراته ، لتخريب الجامعة العربية من الداخل ، والنيل من القومية العربية ، ومن سياسة التحرر العربى .

هذا فى نفس الوقت الذى كان فيه بورقيبة يقوم بأحط وأدنأ الاعمال ، وأكثرها عداء لمصر ، وخيانة لقضية التحرر العربى ..

ففى اثناء العدوان الثلاثى على مصر ، عبرت جميع الدول الصديقة ، عن استنكارها لهذا الاعتداء ، وكان الناس يتوقعون أن

تكون تونس فى مقدمة هذه الدول ، نظراً لمواقف مصر وحكومتها الكثيرة الطيبة التى اتخذتها فى كل محنــــة قاستها تونس . لـكن بورقيبة ، اكتفى بأن يذكر فى خطاب القاه فى ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ ، بأنه لم تصله معلومات دقيقة عن الانذار ، الذى صـــدر من الحكومتين الانجليزية والفرنسية لمصر واسرائيل ، بايقاف القتال . وانه يجب الا يبدى رأيا أو يتخذ موقفا الا بعد ((**التروى**)) و ((**امعان النظر**)) و ((**التحقـــيق من الواقع**)) ، واكتفى بأن طلب من رئيس الجمعـــية العامة لهيئة الامم ، فى الاول من نوفمبر ــ اى بعد ٣ أيام من الاعتداء استعمال نفوذه لايقاف الهجوم على مصر ، وانســـــحاب القـــوات الاجنبية منها .

ولما تبين له بعد ذلك اجماع العالم على استنكار هذا الاعتداء ، قرر هو أيضا استنكاره فى ٢ نوفمبر ..

هذا عن موقفه بالنسبة للعدوان .. أما عن موقفه بالنسبة لمصر فقد رفض فى ٣٠ **اكتوبر ١٩٥٦ ، طلب القاء خطاب صغير من الاذاعة التونسية يعرض فيه على الشعب التونسى حقيقة العدوان عـلى مصر ، فى نفس الوقت الذى كانت تعرض فيه ، فى واجهات المحلات ، فى أهم الشوارع التونسية ، صور من اسرائيل ، تبين بعضها الاسرى المصريين فى اسرائيل ، وذلك تحت بصر وسمع المسئولين فى تونس ، ويكتب تحتها عبارات استفزازية كاذبة ، مثل : ((انحدار الجيش المصرى أمام اسرائيل))** . مما أدى بالشعب وقتئذ الى تحطيم هذه الواجهات وابداء مظاهر الاحتجاج على مايحدث فى بلده العربى .

بل انه عندما بدأت تركيا فى مؤامرتها العدوانية على سوريا ، فى عام ١٩٥٧ ، لم يكن موقفه ازاء سوريا ، أحسن من موقفه ازاء مصر . ففى خطاب لبورقيبة ، فى ٢٤ اكتوبر ١٩٥٧ ، هاجم سياسة سوريا ، ووقف الى جانب تركيا ، أثناء هذه المؤامرة ، بل واتهم الســـاسة السوريون انفسهم ، بأنهم آلة تنفــذ رغبات وأوامر خروشتشيف .

وفى ٩ يناير ١٩٥٨ ، صرح بورقيبة بأن المؤتمر الاسيوى الافريقى المنعقد فى القاهرة كان يسيطر عليه الروس .

وفى ٢٢ يناير ١٩٥٨ أيضا ، هاجم بورقيبة المؤتمر الاسيوى الافريقى فى تصريح له ، فى «الفرانس أوبزرفاتير» ، و «الاكسبريس» الفرنسيتين ، وفى جريدة ، « نيويورك تايمز » ، الامريكية ، كما هاجم فيها الحياد الايجابى والدول التى اشتركت فى المؤتمر الاسيوى الافريقى ، واتهمها بالشيوعية .

وفى ٦ فبراير ١٩٥٨ ، قال بورقيبة فى خطاب له ، « أن الرئيس عبد الناصر ، يسير وراء الشيوعية .. » ووجه اليه الاتهام الذى يردده المعسكر الاستعمارى ، الحانق على سياسة الرئيس عبد الناصر التحررية ، والقومية ، وقال عنه أيضا ، انه يحرض الشعوب ضد حكوماتها .

وفى ٦ مارس ١٩٥٨ ، هاجم بورقيبة الرئيس عبد الناصر ، عندما فضح أعوان الاستعمار من الهاشميين ، الذين كانوا يدبرون المؤامرات ضد القومية العربية ، ثم حاول فى خطابه هذا ، اساءة العلاقة بين الجمهورية العربية المتحدة ، وتونس ، وذلك استكمالا للمؤامرات ، التى كان يدبرها الاستعمار ، والتى اضطلع بها أعوانه من الهاشميين ..

هذا ماكان يفعله ، ويقوله بورقيبة عن الجمهورية العربية المتحدة ، وعن جمال عبد الناصر ، فهل يمكننا أن نصدق بعد ذلك ، صحة دعواه ، التى تذرع بها لتبرير تصرفاته فى داخل الجامعة العربية ، وهل يمكن لمنطقه ، القائم على تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى شئون تونس ، وحمايتها لصالح بن يوسف ، أن يقوم على أساس ؟ .

الا ان الحقائق كلها تقوم على صحة ما أوضحناه فى هذا الكتاب .

عن الهدف الحقيقى الذى يسعى اليه بورقيبة وسادته ، وعن حقيقة مايريده هو ، ويريده الاستعماريون لبلادنا العربية .

وان تصريحات بورقيبة نفسها ، تقوم دليلا على صدق مانقول به من أنه دخل الجامعة ، وفى نفسه أمرا ..

فى حديث لبورقيبة فى جريدة « دويتشه تزيتونج » الالمانية فى ٣ مايو ١٩٥٨ ، صرح بأنه .. **« على إستعداد لفعل أى شىء حتى تستطيع تونس أن تظل مخلصة للغرب . »**

وفى حديث له مع مراسل وكالة « الاسوشيتدبرس » فى ٢٢ سبتمبر ١٩٥٨ ، ذكر ان دخوله الجامعة سيتيح له الفرصة للقيام بدور معين بداخلها . واستطرد فى الحديث بما يفيد أنه ينوي مهاجمة الجمهورية العربية المتحدة فى مجلس الجامعة .

وفى حديث اخر له ، فى جريدة « النيويورك هيرالد تريبيون » . الامريكية ، فى يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٥٨ ، حاول الاستعانة بالامريكان واسلحتهم ، بحجة حماية نفسه مما اسماه بالخطر المصرى والخطر الشيوعى .. هذا فى نفس الوقت ، الذى لايتوقف انصار بورقيبة ، ورجال حكومته ، عن التصريح بمناسبة ، وبدون مناسبة من انهم لن يغيروا سياستهم الموالية للغرب ، حتى ولو أدى ذلك لخروجهم من الجامعة العربية فى أى وقت . هذا الى جوار تأييده للاحتلال الامريكى للبنان ، فى خطابه الذى أدلى به فى ٢٥ يوليو ١٩٥٨ ، والذى استحق عليه الشكر من الرئيس الأمريكى أيزنهاور ، الى اخر كل المواقف العامة ، المتسمة بطابع واحد ، هو العداء للقومية العربية ، وحركة التحرر العربى ، وحركة التضامن العربى ، من اجل السيادة والتقدم .. فى كل مناسبة ، وفى كل وقت ، تنفيذا لخطط الاستعمار ...

كل هذا والجمهورية العربية المتحدة ، لاتحرك ساكنا بالنسبة له ، لا فى صحافتها ، ولا فى اذاعاتها .. ولا بأى وسيلة من الوسائل أو سبيلا من السبل ..

وقد يعتقد البعض ان تصرفات بورقيبة هذه ، كانت موجهة الى القومية العربية فحسب .. كانت موجهة الى حركة التحرر العربى ككل .. لكن كان هنالك الى جوار كل هذا ، تصرفات أخرى ، لاتتسم بروح الاخاء والتعاطف الواجب توافرها بين الشقيق وشقيقه ، بين العرب وبعضهم البعض .. تصرفات أقل ماتوصف به أنها « عدائية » ، بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة بالذات .

فقد امتنعت وزارة الخارجية التونسية عن الاذن لسفارة الجمهورية العربية المتحدة فى تونس ، باصدار نشرة اخبارية أسوة بالسفارات الاخرى ، ولم تصرح لها الا بعد مايزيد عن سنة من المحاولات والمساعى المختلفة .

كما رفضت الحكومة التونسية السماح بانشاء مركز ثقافى عربى فى تونس بالرغم من وجود مركز ثقافى ، لامريكا وانجلترا وايطاليا والمانيا ، كما رفضت عقد اتفاقية بين البلدين .

ورفضت الحكومة التونسية دراسة مشروع اتفاقية جوية بين البلدين ، مع العلم بأن الحكومة التونسية ، قد عقدت اتفاقات جوية مماثلة مع ايطاليا وبلجيكا .

ورفضت السلطات التونسية السماح بعرض منتجات المصانع الحربية فى القسم المصرى بمعرض تونس فى عام ١٩٥٧ .

وتمسكت الحكومة التونسية بسياسة تصعيب منح تأشيرات الدخول الى تونس ، لرعايا الجمهورية العربية المتحدة ، أو حتى

المرور بها . بل انها وصلت الى حد تفتيش واستجواب كل زوار سفارة الجمهورية العربية المتحدة ، من التونسيين ، بعد خروجهم منها ، كما عملت على تعطيل خروج الصحف والمجلات المصرية من المطارات ، ووصولها الى أيدى القراء ، بل ومضايقة مستورديها ، الى أن أوقفت تماما . فى الوقت الذى تقوم فيه الحكومة بكافة التسهيلات للصحافة الاستعمارية والصهيونية ، للوصول الى داخل تونس . وياليت الأمر اقتصر بالحكومة التونسية عند هذا الحد ، بل لقد فاق الحبيب بورقيبة نورى السعيد ، فى جرأته ، وذلك فيما يتعلق بعلاقاته مع اسرائيل والصهيونية العالمية ..

فلقد دعت الحكومة التونسية مندوب اسرائيل لحضور المؤتمر الخامس للاتحاد العالمى للنقابات الحرة الذى عقد فى يوليو ١٩٥٧ فى تونس . واستقبل بورقيبة أعضاء الوفد ، وهم أشخاص معروفون بنشاطهم الصهيونى الكبير ، وأنهم مندوبين لمنظمات يهودية عالمية .

وفى ١٠ فبراير استقبل بورقيبة ، الشخص المدعو « كوهين » وهو أحد اليهود المطرودين من مصر ، لنشاطه ضد العرب ، وتناول معه العشاء فى داره . وفى ١٨ فبراير من نفس العام ، استقبل بورقيبة وفدا من الجمعية اليهودية الامريكية والمدير السياسى للمؤتمر اليهودى العالمى .

وفى ١٢ مايو ١٩٥٨ قابل بورقيبة المستر « زيمرمان » ، وكيل الاتحاد الامريكى لصناعةالملابس وهو يهودى صهيونى من المعروفين بتعصبهم لاسرائيل .

هذا الى جوار سماح بورقيبة بهجرة يهود تونس الى اسرائيل وقد هاجر الآلاف من يهود تونس لدعم وطنهم القومى المزعوم « اسرائيل » ، كما أن هنالك اتصال علنى بين رئيس الطائفةاليهودية فى تونس والمسئولين فى اسرائيل ، واتصال بريدى بين تونس

واسرائيل ، وطرود ترد الى تونس من اسرائيل مباشرة .. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن تونس هي البلد العربي الوحيد الذي يسمح بهذا التبادل ..

فهل هنالك من يستطيع بعد كل هذا أن يقول أن بورقيبة ، انما ثار من أجل حرية بلده الذي يهدده تدخل الجمهورية العربية المتحدة .. ؟

وهل هنالك من يستطيع أن يقول أن بورقيبة ، انما فعل مافعل من أجل القومية العربية واستقلال العرب .. ؟

لقد قال بورقيبة في بيانه الذي القاه في الجمعية التأسيسية بمناسبة موقف مندوبه في الجامعة العربية : ((**نعم أنا غربي .. وسأبقى غربي .**))

ولقد علقت جريدة الفيجارو الفرنسية ، في عددها الصادر في ١٤ اكتوبر على موقفه هذا فقالت : ((ان الزعيم التونسي بتصرفه على هذا النحو انما يدعم مكانته لدى العالم الغربي ، الذي تزعجه زعامة الجمهورية العربية المتحدة ..))

لقد اتضح بما لايدع مجالا للشك ، ان بورقيبة ، انما يهدف من وراء كل هذا الي تنفيذ خطة رسمها الاخرون .. الى ارضاء الاستعمار والصهيونية على حساب مصالح الشعب العربي .

انه يريد أن يوقف ثورة الجزائر ، ويصفي ثورة الجزائر لحساب الاستعمار .. والا فكيف يستطيع ان يفسر بورقيبة ، رفض الحبيب الشيطي ، سفيره في لبنان ، ورئيس وفده في الجامعة العربية ، والوحيد الذي قبل تعليمات بورقيبة .. كيف يستطيع تفسير رفض الشيطي الاشتراك في اجتماع اللجنة السياسية للجامعة

العربية ، معتذرا بأنه مفوض لحضور أعمال مجلس الجامعة ، لا في أعمال اللجنة السياسية التابعة لها ..

لكننا نستطيع تفسيرهذا .. **ان جدول أعمال اللجنةالسياسية كان يتضمن بحث طلب حكومة الجزائر ١٢ مليون جنيه من الجامعة العربية .. ولم يرغب مندوب تونس الاشتراك في هذا الاجتماع ، حتى لايوافق على اعتماد هذا المبلغ الذى يزعج الاستعمار منحه لثوار الجزائر ..**

ان بورقيبة يريد ان يوحد شمال افريقيا تحت زعامتهالسياسية

انه يريد ان يربط شعوب شمال افريقيا بحلف استعمارى مع الغرب ..

انه يريد ان يوقف امتداد تيار القوميـة العربية المتحررة الى شمال افريقيا ..

لكن هل يستطيع . ! ؟

لكن هل تسمح له شعوب العرب ! ؟

لكن هل يسمح له الشعب التونسى !. ؟

لقد دبر الاستعمار من قبل خططا مثل هذه مع نورى السعيد فهل افلحت ! ؟

ان جريدة « الجمهورية » العراقية ، تقول في عددها الصادر في ١٨ اكتوبر ١٩٥٨ : **« ان الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة يحاول القيام بدور نورى السعيد .. ولكننا نحذره بانه سيلقى نفس المصير الذى لقيه نورى السعيد من قبل ..**

ان بورقيبة هو الشخص الوحيد الذى يرشحه الاستعمار لكى يلعب دور نورى السعيد فى مهاجمة مايسميه الغرب بالمبـــادىء الناصرية .. لكن الحقيقة التى لاتقبل اى جدل ، هى أن أى هجوم على الجمهورية العربية المتحدة ، يعد هجوما على القومية العربية .. ولقد تحول الاستعمار الى حكومة تونس الرجعية لكى يجعل منهـا اداة لمهاجمة الثورة الجزائرية من ناحية والجمهورية العربية المتحدة من ناحية أخرى .. وذلك بعد أن سقطت حكومة العراق الموالية للغرب .. لكن الحكومة التونسية ستصبح فى معزل عن العـــالم العربى ، وسيضطر بورقيبة الى أن يحكم بلاده بالحديد والنـــار وهذا أمر سيعجل بسقوط حكومته ..))

الا ان راديو بغـــداد ، كان أكثر صراحة ووضوحا فى رده على الاسئلة التى أوضحناها فقال : ((**أما عن عمـــلاء الاستعمار الذين يحاولون الوقوف أمام تيار الحق ، فاننا قد رأينا مصيرهم ، وسمع العالم كله عن نهايتهم .**

لقد كان الموت والابادة ، وجر الاجســـاد الممزقة فى الشوارع كالكلاب هو المصير الذى لاقوه . أو لم يكن ما حدث فى العراق درسا نافعـا كافيـا لمن يصغى لرغبات قلبه الشريرة ولمن باع نفســه للمستعمرين بالمال ، من الدولارات ، والجنيهات ؟)) .

نعم ...

ان بورقيبة لن يستطيع لا هو ، ولا الاستعمار العالمى ، عزل عرب شمال أفريقيا عن الامة العربية ..

ان بورقيبة والاستعمار العالمى ، لن يستطيعا ، أخضاع شعوب شمال أفريقيا العربية تحت سيطرتهم ...

انهم لن يستطيعوا ربطها بأحلافهم ...

انهم لن يستطيعوا ضرب حركة التحرر الوطنى للشعوب العربية ..

انهم لن يستطيعوا منع تيار القومية العربية من الامتداد من المحيط الاطلسى حتى الخليج العربى .

انهم لن يستطيعوا أن يقفوا فى وجه رغبة شعوب العرب الجارفة فى الوحدة ، للنضال ضد الاستعمار ، من أجل السلام ، ومن أجل البناء الثقافى والاقتصادى .

انهم لن يستطيعوا كبت روح باندونج والقاهرة ، وأكرا ، روح التضامن بين شعوب آسيا وافريقيا .

انهم لن يستطيعوا أن يحطموا سياسة التعايش السلمى والحياد الايجابى ..

انهم لن يقضوا على روح التحرر والسلام .

انهم لن يحتكروا ثرواتنا ، ويستغلوا بلادنا ..

وكل ما يمكن أن يحدث ، هو أن تحطم جماهير الشعوب العربية المكافحة ، قوى الاستعمار ، وأن تدوس فى تقدمها المستمر .. كل الطغاة .. كل العملاء .. وكل الخونة .. لان الشعب العربى فى المعركة من اجل القومية ..

وحتما سينتصر الشعب العربى .

●

دار الهنا للطباعة والنشر ت : ٤١١٢٧